

دروس وعبر من

الأميرة

الدكتور: مصطفى السباعي

تنسيق واخراج

موقع نصره رسول الله

www.rasoulallah.net

دروس وعبر من

الأميرة

الدكتور: مصطفى السباعي

تنسيق واخراج

موقع نصره رسول الله

www.rasoulallah.net

المحتوى

٥ المقدمة
٨ مصادر السيرة النبوية
١١ في حياته قبل البعثة
١٥ في السيرة منذ البعثة حتى الهجرة إلى الحبشة
١٩ في السيرة بعد هجرة الحبشة إلى الهجرة للمدينة
٢٣ منذ الهجرة حتى استقرار النبي في المدينة
٣٠ وصايا الرسول في الغزوات _ الوصية الاولى
٣٧ وصايا الرسول في الغزوات _ الوصية الثانية
٤١ وصايا الرسول في الغزوات _ الوصية الثالثة
٤٥ وصايا الرسول في الغزوات _ الوصية الرابعة
٤٨ أهم الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة
٥٢ أهم الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة إلى وفاة الرسول
٥٦ أهم الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة

المقدمة

١- ميزة السيرة النبوية

تجمع السيرة النبوية عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية ، كما تجعل هذه الدراسة ضرورية لعلماء الشريعة والدعاة إلى الله والمهتمين بالإصلاح الاجتماعي ، ليضمنوا إبلاغ الشريعة إلى الناس بأسلوب يجعلهم يرون فيها المُعْتَصَم الذي يلوذون به عند اضطراب السبل واشتداد العواصف ، ولتتفتح أمام الدعاة قلوب الناس وأفئدتهم ، ويكون الإصلاح الذي يدعو إليه المصلحون ، وأقرب نجحاً وأكثر سداداً . ونجمل فيما يلي أبرز مزايا السيرة النبوية .

أولاً - إنها أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل ، أو عظيم مُصلح فقد وصلت إلينا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتاً - كما سنرى في بحث مصادر السيرة - مما لا يترك مجالاً للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى ، ومما يبسر لنا معرفة ما أضيف إليها في العصور المتأخرة من أحداث أو معجزات أو وقائع أو حتى بها العقل الجاهل الراغب في زيادة إضفاء الصفة المدهشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما أراد الله لرسوله أن يكون عليه من جلال المقام وقدس الرسالة ، وعظمة السيرة .

إن الميزة من صحة السيرة صحة لا يتطرق إليها شك لا توجد في سيرة رسول الله السابقين ، فموسى عليه السلام قد اختلطت عندنا وقائع سيرته الصحيحة بما أدخل عليه اليهود من زيف وتحريف ، ولا نستطيع أن نركن إلى التوراة الحاضرة لنستخرج منها سيرة صادقة لموسى عليه السلام ، فقد أخذ كثير من النقاد الغربيين يشكون في بعض أسفارها ، وبعضهم يجزم بأن بعض أسفارها لهم يكتب في حياة موسى عليه السلام كما وردت في التوراة ، ولذلك ليس أمام المسلم أن يؤمن بشيء من صحة سيرته إلا ما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ومثل ذلك يقال في سيرة عيسى عليه السلام ، فهذه الأناجيل المعترف بها بين المسيحيين منذ مئات السنين ، وقد اختيرت - بدون مسوغ علمي - من بين مئات الأناجيل التي كانت منتشرة في أيدي المسيحيين يومئذ . ثم إن نسبة هذه الأناجيل لكاتبها لم يثبت عن طريق علمي تظمن النفس إليه ، فهي لم تروى بسند متصل إلى كاتبها ، على أن الخلاف قد وقع أيضاً بين النقاد الغربيين في أسماء بعض هؤلاء الكاتبيين من يكونون ؟

وفي أي عصر كانوا ؟

وإذا كان هذا شأن سير الرسل أصحاب الديانات المنتشرة في العالم ، كان الشك أقوى في سيرة أصحاب الديانات والفلاسفة الآخرين الذين يعد أتباعهم بمئات الملايين في العالم ، كبوذا وكونفوشيوس ، فإن الروايات التي يتناقلها أتباعهم عن سيرتهم ليس لها أصل معتبر في نظر البحث العلمي ، وإنما يتلقفها الكهان فيما بينهم ، ويزيد فيها كل جبل عن سابقة بما هو من قبيل الأساطير والخرافات التي لا يصدقها العقل المتحرر من التعصب لتلك الديانات .

وهكذا نجد أن أصح سيرة وأقواها ثبوتاً متواتراً هي سيرة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً - إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها ، منذ زواج أبيه عبد الله بامه آمنة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم ، فنحن نعرف الشيء الكثير عن ولادته ، وطفولته وشبابه ، ومكسبه قبل النبوة ، ورحلاته خارج مكة ، إلى أن بعثه الله وسولا كريماً ، ثم نعرف بشكل أدق وأوضح وأكمل كل أحواله بعد ذلك سنة فسنة ، مما يجعل سيرته عليه الصلاة والسلام واضحة وضوح الشمس ، كما قال بعض النقاد الغربيين : إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس .

وهذا ما لم يتيسر مثله ولا قريب منه لرسول الله من رسل السابقين ، فموسى عليه السلام لا نعرف شيئاً قط عن طفولته وشبابه وطرف معيشته قبل النبوة ، نعرف الشيء القليل عن حياته بعد النبوة ، مما لا يعطينا صورة مكتملة لشخصيته ، ومثل ذلك يقال في عيسى عليه السلام ، فنحن لا نعرف شيئاً عن طفولته إلا ما تذكره الأناجيل الحاضرة ، من أنه دخل هيكل اليهود ، وناقش أبحارهم ، فهذه هي الحادثة الوحيدة التي يذكرونها عن طفولته ، ثم نحن لا نعرف من أحواله بعد النبوة إلا ما يتصل بدعوته ، وقليلاً من أسلوب معيشته ، وما عدا ذلك فأمر يغطيه الضباب الكثير .

فأين هذا مما تذكره مصادر السيرة الصحيحة من أدق التفاصيل في حياة رسولنا الشخصية ، كأكله ، وقيامه ، وعوده ، ولباسه ، وشكله ، وهيبته ، ومنطقه ، ومعاملته لأسرته ، وتعبده ، وصلاته ، ومعاشرته لأصحابه ، بل بلغت الدقة في رواة سيرته أن يذكروا لنا عدد الشعرات البيض في رأسه ولحيته صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً - إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحكي سيرة انسان أكرمه الله بالرسالة ، فلم تخرجه عن انسانيته ، ولم تلحق حياته بالأساطير ، ولم تضيف عليه الألوهية قليلاً ولا كثيراً ، وإذا قارننا هذا بما يرويه المسيحيون عن سيرة عيسى عليه السلام ، وما يرويه البوذيون عن بوذا والوثنيون عن آلهتهم المعبودة ، اتضح لنا الفرق جلياً بين سيرته عليه السلام وسيرة هؤلاء ، ولذلك أثر بعيد المدى في السلوك الإنساني والاجتماعي لأتباعهم ، فادعاء الألوهية لعيسى عليه السلام ولبوذا جعلهما أبعد مثالا من أن يكونا قدوة نموذجية للإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية ، بينما ظل وسيظل محمد صلى الله عليه وسلم المثل النموذجي للإنساني الكامل لكل من أراد أن يعيش سعيداً كريماً في نفسه وأسرته وبيئته ، ومن هنا يقول الله تعالى في كتابة الكريم :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) [الأحزاب : ٢١]

رابعاً : أن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان ، فهي تحكي لنا سيرة محمد الشاب الأمين المستقيم قبل أن يكرمه الله بالرسالة ، كما تحكي لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله المتلمس أجدى الوسائل لقبول دعوته ، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته ، كما تحكي لنا سيرته كرئيس دولة يضع لدولته أقوى النظم وأصحها ، ويحميها بيقظته وإخلاصه وصدقة بما يكفل لها النجاح ، كما تحكي لنا سيرة الرسول الزوج والأب في حنو العاطفة ، وحسن المعاملة ، والتميز الواضح بين الحقوق والواجبات لكل من الزوج والزوجة والأولاد كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي المرشد الذي يشرف على تربية أصحابه تربية مثالية ينقل فيها من روحه إلى أرواحهم ، ومن نفسه إلى نفوسهم ، ما يجعلهم يحاولون الاقتداء به في دقيق الأمور وكبيرها . كما تحكي لنا سيرة الرسول الصديق الذي يقوم بواجبات الصحة ، وفي بالتزاماتها وآدابها ، مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم وأكثر من حبهم لأهلهم وأقربائهم ، وسيرته تحكي لنا سيرة المحارب الشجاع ، والقائد المنتصر ، والسياسي الناجح ، والجار الأمين ، والمعاهد الصادق .

إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع ، مما يجعله القدرة الصالحة لكل داعية ، وكل فائد ، وكل أب وكل زوج ، وكل صديق ، وكل مربي ، وكل سياسي ، وكل رئيس دولة ، وهكذا .

ونحن لا نجد مثل هذا الشمول ولا قريباً منه فيما بقي لنا من سير الرسل السابقين ، ومؤسسي الديانات والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين ، فموسى يمثل زعيم الأمة الذي أنفذ أمته من العبودية ، ووضح لها من القواعد والمبادئ ما يصلح لها وحدها ، ولكننا لا نجد في سيرته ما يجعله قدوة للمحاربين ، أو المربين أو السياسيين ، أو رؤساء الدول ، أو الآباء ، أو الأزواج مثلاً ، وعيسى عليه السلام يمثل الداعية الزاهد الذي غادر الدنيا وهو لا يملك مالا ، ولا داراً ، ولا متاعاً ، ولكنه في سيرته الموجودة بين ايد المسيحيين - لا يمثل القائد المغوار ، ولا رئيس الدولة ، ولا الأب ، ولا الزوج - لأنه لم يتزوج - ولا المشرع ، ولا غير ذلك مما تمثله سيرة محمد صلى الله عليه وسلم . وقل مثل ذلك في بوذا ، وكونفوشيوس ، وأرسطو ، وأفلاطون ، ونابليون ، وغيرهم من عظماء التاريخ ، فإنهم لا يصلحون للقدوة - إن صلحوا - إلا لناحية واحدة من نواحي الحياة برزوا فيها واشتهروا بها ، والإنسان الوحيد في التاريخ الذي يصلح أن يكون قدوة لجميع الفئات وجميع ذوي المواهب وجميع الناس هو محمد صلى الله عليه وسلم

خامساً - إن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وحدها تعطينا الدليل الذي لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته ، إنها سيرة إنسان كامل سار بدعوته من نصر إلى نصر ، لا على طريق الخوارق والمعجزات ، بل عن طريق طبيعي بحت ، فلقد دعا فأوذى ، وبلغ فأصبح له الأنصار ، وأضطر إلى الحرب فحارب ، وكان حكيماً ، موفقاً في قيادته ، فما أزفت ساعة وفاته إلا كانت دعوته تلف الجزيرة العربية كلها عن طريق الإيمان ، لا عن طريق القهر والغلبة ، ومن عرف ما كان عليه العرب من عادات وعقائد وما قاوموا به دعوته من شتى أنواع المقاومة حتى تدير اغتياله ، ومن عرف عدم التكافؤ بينه وبين محاربيه في كل معركة انتصر فيها ، ومن عرف قصر المدة التي استغرقتها رسالته حتى وفاته ، وهي ثلاث وعشرون سنة ، أيقن أن محمداً رسول الله حقاً ، وأن ما كان يمنحه الله من ثبات وقوة وتأثير ونصر ليس إلا لأنه نبي حقاً ،

وما كان الله أن يؤيد من يكذب عليه هذا التأييد الفريد في التاريخ ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبت لنا صدق رسالته عن طريق عقلي بحت ، وما وقع له صلى الله عليه وسلم من المعجزات لم يكن الأساس الأول في إيمان العرب بدعوته ، بل إننا لا نجد له معجزة آمن معها الكفار المعاندون ، على أن المعجزات المادية إنما تكون حجة على من شاهدها ، ومن المؤكد أن المسلمين الذين لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يشاهدوا معجزاته ، إنما آمنوا بصدق رسالته للأدلة العقلية القاطعة على صدق دعوة النبوة ، ومن هذه الأدلة العقلية : القرآن الكريم ، فإنه معجزة عقلية ، تلزم كل عاقل منصف أن يؤمن بصدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة .

وهذا يختلف تماماً عن سير الأنبياء السابقين المحفوظة لدى أتباعهم ، فهي تدلنا على أن الناس إنما آمنوا بهم لما رأوا على أيديهم من معجزات وخوارق ، دون أن يحكموا عقولهم في مبادئ دعواهم فتذعن لها ، وأوضح مثل لذلك السيد المسيح عليه السلام ، فإن الله حكى لنا في القرآن الكريم أنه جعل الدعامة الأولى في إقناع اليهود بصدق رسالته أنه يبرئ الأكمه والأبرص ، ويشفي المرضى ، ويحيي الموتى ، وينبئهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، كل ذلك بإذن الله جل شأنه ، والأناجيل الحاضرة تروي لنا أن هذا المعجزات هي وحدها التي كانت سبباً في إيمان الجماهير دفعة واحدة به ، لا على أنه رسول كما يحكي القرآن الكريم ، بل على أنه إله وابن إله - وحاشا لله من ذلك - والمسيحية بعد المسيح انتشرت بالمعجزات وخوارق العادات - وفي سفر أعمال الرسل أكبر دليل على ذلك - حتى ليصح لنا أن نطلق على المسيحية التي يؤمن بها أتباعها أنها دين قام على المعجزات والخوارق لا على الإقناع العقلي ، ومن هنا نرى هذه الميزة الواضحة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه ما آمن به واحد عن طريق مشاهدته لمعجزة خارقة ، بل عن اقتناع عقلي و وجداني ، وإذا كان الله قد أكرم رسوله بالمعجزات الخارقة ، فما ذلك إلا إكرام له صلى الله عليه وسلم وإفحام لمعانديه المكابرين ومن تتبع القرآن الكريم وجد أنه اعتمد في الإقناع على المحاكمة العقلية ، والمشاهدة المحسوسة لعظيم صنع الله ، والمعرفة التامة بما كان عليه الرسول من أمية تجعل إتيانه بالقرآن الكريم دليلاً على صدق رسالته صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى في سورة العنكبوت : (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُثَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] ، ولما أشنت طلب كفار قريش للمعجزات ، أمره الله أن يجيبهم بقوله : (سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟) [الإسراء : ٩٣] استمع إلى ذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِهٍ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً ، أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) [الإسراء : ٩١ - ٩٣] .

هكذا يقرر القرآن بصراحة ووضوح أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنسان رسول ، وأنه لا يعتمد في دعوى الرسالة على الخوارق والمعجزات ، وإنما يخاطب العقول والقلوب ، (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) [الأنعام : ١٢٥] .

مصادر السيرة النبوية

تتخصر المصادر الرئيسية المعتمدة للسيرة النبوية في أربعة مصادر :

١- القرآن الكريم :

وهو مصدر أساسي نستمد منه ملامح السيرة النبوية ، فقد تعرض القرآن الكريم لنشأته صلى الله عليه وسلم (**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**) [الضحى ٥-٦] كما تعرض لأخلاقه الكريمة العالية (**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) [القلم : ٤] . وقد تحدث القرآن عما لقيه عليه الصلاة والسلام من أذى وعنت في سبيل دعوته ، كما ذكر ما كان المشركون ينعنون به من السحر والجنون صداً عن دين الله عز وجل ، وقد تعرض القرآن لهجرة الرسول كما تعرض لأهم المعارك الحربية التي خاضها بعد هجرته ، فتحدث عن معركة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وصلاح الحديبية ، وفتح مكة ، وغزوة حنين . وتحدث عن بعض معجزاته ، كمعجزة الإسراء والمعراج .

وبالجملة فقد تحدث عن كثير من وقائع سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما كان الكتاب الكريم أوثق كتاب على وجه الأرض ، وكان من الثبوت المتواتر بما لا يفكر إنسان عاقل في التشكيك بنصوصه وثبوتها التاريخي ، فإن ما تعرض له من وقائع السيرة يعتبر أصح مصدر للسيرة على الإطلاق .

ولكن من الملاحظ أن القرآن لم يتعرض لتفاصيل الوقائع النبوية ، وإنما تعرض لها إجمالاً ، فهو حين يتحدث عن معركة لا يتحدث عن أسبابها ، ولا عن عدد المسلمين والمشركين فيها ، ولا عن عدد القتلى والأسرى من المشركين ، وإنما يتحدث عن دروس المعركة وما فيها من عبر وعظات ، وهذا شأن القرآن في كل ما أورده من قصص عن الأنبياء السابقين والأمم الماضية ، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نكتفي بنصوص القرآن المتعلقة بالسيرة النبوية لنخرج منها بصورة متكاملة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢- السنة النبوية الصحيحة :

السنة النبوية الصحيحة التي تضمنتها كتب أئمة الحديث المعترف بصدقهم والثقة بهم في العالم الإسلامي هي : الكتب الستة : البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي والترمذي ، وابن ماجه . ويضاف إليها : موطأ الإمام مالك ، و مسند الإمام أحمد ، فهذه الكتب وخاصة البخاري ومسلم في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق ، أما الكتب الأخرى ، فقد تضمنت الصحيح والحسن ، وفي بعضها الضعيف أيضاً .

من هذه الكتب التي حوت القسم الأكبر من حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ووقائعه وحروبه ، وأعماله ، نستطيع أن نتكون لدينا فكرة شاملة - وإن كانت غير متكاملة أحياناً - عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومما يزيد الثقة بها والاطمئنان إليها أنها رويت بالسند المتصل إلى الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم الذين عاشروا الرسول ولازموه ، ونصر الله بهم دينه ، وقد رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينة ، فكانوا أكمل أجيال التاريخ استقامة وأخلاق وقوة إيمان ، وصدق حديث ، و سمو أرواح وكمال عقول ، فكل ما رووه لنا عن الرسول بالسند الصحيح المتصل يجب أن نقبله كحقيقة تاريخية لا يخالجننا الشك فيها .

ويحاول المستشرقون المغرضون وأتباعهم من المسلمين الذين رق دينهم ، وفتنوا بالغرب وعلماؤه أن يشككوا في صحة ما بين أيدينا من كتب السنة المعتمدة ، لينفذوا منها إلى هدم الشريعة ، والتشكيك بوقائع السيرة ، ولكن الله الذي تكفل بحفظ دينه قد هيا لهم من يرد سهام باطلهم ، وكيدهم إلى نحورهم وقد تعرضت في كتابي «السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي» إلى جهود علمائنا في تمحيص السنة النبوية ، وسردت شبة المشركين ومن تبعهم ، وناقشتها نقاشاً علمياً ، أرجو الله أن يثيبني عليه ، ويجعله في صفحات حسناتي يوم العرض عليه .

٣-الشعر العربي المعاصر لعهد الرسالة :

مما لا شك فيه أن المشركين قد هاجموا الرسول ودعوته على السنة شعرائهم ، مما اضطر المسلمين إلى الرد عليهم على السنة شعرائهم ، كحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وغيرهما وقد تضمنت كتب الأدب ، وكتب السيرة التي صنفها بعد قسماً كبيراً من هذه الأشعار التي تستطيع أن نستنتج منها حقائق كثيرة عن البيئة التي كان يعيش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي ترعرعت فيها دعوة الإسلام أو قيامها .

٤- كتب السيرة :

كانت وقائع السيرة النبوية روايات يرويها الصحابة رضوان الله عليهم إلى من بعدهم ، وقد اختصر بعضهم بتتبع دقائق السيرة وتفصيلها ، ثم تناقل التابعون هذه الأخبار ودونها في صحائف عندهم ، وقد أختص بعضهم بالعبارة التامة بها ، أمثال : أبان بن عثمان ابن عفان رضي الله عنه (٣٢- ١٠٥ هـ) و عروة بن الزبير بن العوام (٢٣- ٩٣ هـ) ومن صغار التابعين عبد الله بن أبي بكر الأنصاري (توفي سنة ١٣٥ هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠ - ١٢٣ هـ) الذي جمع السنة في عهد عمر بن عبد العزيز بأمره ، وعاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (توفي سنة ١٢٩ هـ) .

ثم انتقلت العناية بالسيرة إلى من بعدهم، حتى أفردها بالتصنيف ، ومن أشهر أوائل المصنفين في السيرة محمد بن إسحاق بن يسار (توفي سنة ١٥٢ هـ) وقد اتفق جمهور العلماء والمحدثين على توثيقه ، إلا ما روي عن مالك ، وهشام بن عروة بن الزبير من تجريحه ، وقد حمل كثير من العلماء المحققين تجريح هذين العالمين الكبيرين له بعداوات شخصية كانت قائمة بينهما وبين ابن إسحاق .

ألف ابن إسحاق كتابه «المغازي» من أحاديث وروايات سمعها بنفسه في المدينة ومصر ، ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، فقد فقد فيما فقد من تراثنا العلمي الزاخر ، ولكن مضمون الكتاب بقي محفوظاً بما رواه عنه ابن هشام في سيرته عن طريق شيوخه الكباري الذي كان من أشهر تلامذة ابن إسحاق .

سيرة ابن هشام :

هو أبو محمد عبد الله بن أيوب المحيري ، نشأ بالبصرة وتوفي سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ على اختلاف الروايات ، ألف ابن هشام كتابه «السيرة النبوية» مما رواه شيوخه الكباري عن ابن إسحاق ، ومما رواه هو شخصياً عن شيوخه ، مما لم يذكره ابن إسحاق في سيرته ، وأغفل ما رواه ابن إسحاق مما لم يتفق مع نوقه العلمي وملكته النقدية ، فجاء كتاباً من أوفي مصادر السيرة النبوية ، وأصحها ، وأدقها ، ولقي من القبول ما جعل الناس ينسبون كتابه إليه ، فيقولون : سيرة ابن هشام وشرح كتابه هذا عالمان من الأندلس : السهلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) والخشني (٥٣٥ - ٦٠٤ هـ) .

طبقات ابن سعد :

هو محمد بن سعد بن منيع الزهري ، ولد بالبصرة سنة ١٦٨ هـ وتوفي ببغداد سنة ٢٣٠ هـ كان كاتباً لمحمد بن عمر الواقدي المؤرخ الشهير في المغازي والسير (١٣٠-٢٠٧ هـ) سار ابن سعد في كتابه « الطبقات » على ذكر أسماء الصحابة والتابعين - بعد ذكر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم - بحسب طبقاتهم ، وقبائلهم ، وأماكنهم ، ويعتبر كتابه « الطبقات » من أوثق المصادر الأولى للسير ، وأحفظها بذكر الصحابة والتابعين .

تاريخ الطبري :

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) إمام ، فقيه ، محدث ، صاحب مذهب في الفقه لم ينتشر كثيراً ألف كتابه في التاريخ غير مقتصر على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل ذكر تاريخ الأمم قبله ، وأفرد قسماً خاصاً لسيرته صلى الله عليه وسلم ، ثم تابع الحديث عن تاريخ الدول الإسلامية حتى قرب وفاته .

يعتبر الطبري حجة ثقة فيما يروي ، لكنه كثيراً ما يذكر روايات ضعيفة أو باطلة ، مكتفياً بإسنادها على روايتها الذين كان أمرهم معروفاً في عصره ، كما في رواياته عن أبي مخنف ، فقد كان شيعياً متعصباً ، ومع ذلك فقد أورد له الطبري كثيراً من أخباره بإسنادها إليه ، كأنه يتبرأ من عهدتها ، ويلقي العيب على أبي مخنف .

تطور التأليف في السيرة .

ثم تطور التأليف في السيرة ، فأفردت بعض نواحيها بالتأليف خاصة ، كـ « دلائل النبوة » للاصبهاني ، « والشمائل المحمدية » للترمذي ، و « زاد المعاد » لابن قيم الجوزية ، و « الشفاء للقاضي عياض ، و « المواهب اللدنية » للقسطلاني وهو مشروحه في ثمانين مجلدات بقلم الزرقاني المتوفي سنة ١١٢٢ هـ .

وهذا ولا يزال العلماء يؤلفون في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بأسلوب حديث بتقبله ذوق أبناء العصر ، ومن أشهر الكتب المؤلفة في عصرنا الحديث كتاب « نور اليقين في سير سيد المرسلين » للشيخ محمد الخضري رحمه الله ، وقد لقي كتابه قبولا حسنا ، وقررت دراسته في المعاهد الدينية في أكثر أنحاء العالم الإسلامي .

في حياته قبل البعثة

أ - الوقائع التاريخية

تدلنا الأخبار الثابتة عن حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على الحقائق التالية :

١- أنه ولد في أشرف بيت في بيوت العرب ، فهو من أشرف فروع قريش ، وهم بنو هاشم ، وقريش أشرف قبيلة في العرب ، وأزكاها نسبا ، وأعلاها مكانة ، وقد روى عن العباس رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حدثنا يونس بن موسى البغدادي حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن العباس بن عبد المطلب قال قلت يا رسول الله إن قريشا جلسوا فنذاكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقتهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا » سنن الترمذي ج ٥ ص ٥٨٤ (حديث حسن)

ولمكانة هذا النسب الكريم في قريش لم نجد انها طعنت في نسبه الشريف كما طعنت في أشياء أخرى كثيرة مفتراه عليه لاتضح نسبة بينهم ،

٢- أنه نشأ يتيماً ، فقد مات أبو هـ عبدالله وأمه حامل به لشهرين فحسب ، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه أمانة فذاق صلى الله عليه وسلم في صغره مرارة الحرمان من عطف أبوية وحنانها ، وقد كفله بعد ذلك عمه أبو طالب حتى نشأ و أشنتد ساعده ، وإلى يتمه أشار القرآن الكريم بقوله : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) [الضحى : ٦] .

٣- أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم السنوات الأربع الأولى من طفولته في الصحراء في بني سعد ، فنشأ قوي البنية ، سليم الجسم ، فصيح اللسان ، يحسن ركوب الخيل على صغر سنة قد تفتحت مواهبه على صفاء الصحراء وهدوئها ، وإشراق شمسها ونقاوة هوائها .

٤- كانت تعرف فيه النجابة من صغره ، وتلوح على محياه مخابلات الذكاء الذي يحببه إلى كل من رآه فكان إذا أتى الرسول وهو غلام جلس على فراش جده ، وكان إذا جلس عليه لا يجلس معه على الفراش أحد من أولاده (أعمام الرسول) ، فيحاول أعمامه انتزاعه عن الفراش ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا بني ، فوالله إن له لشأنا .

٥- أنه عليه الصلاة والسلام كان يرعى في أوائل شبابه لأهل مكة أغنامهم بقراريط يأخذها أجراً على ذلك ، « وَحَدَّثَنِي مَالِكٌ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدَرَ عَى غَنَمًا قِيلَ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَاَنَا »

موطأ الإمام مالك ج ٢ ص ٩٧١ (من البلاغات)

ثم لما بلغ من عمره خمساً وعشرين ، عمل لخديجة بنت خويلد في التجارة بمالها على أجر تؤديه إليه .

٦- لم يشارك عليه الصلاة والسلام أقرانه من شباب مكة في لهوهم ولا عبثهم ، وقد عصمه الله من ذلك ، فقد استفاض من كتب السيرة أنه سمع وهو في سن الشباب غناء من إحدى دور مكة في حفلة عرس ، فأراد أنه يشهدا ، فألقى الله عليه النوم ، فما أيقظه إلا حر الشمس ، ولم يشارك قومه في عبادة الأوثان ، ولا أكل شيئاً مما ذبح لها ، ولم يشرب خمراً ، ولا لعب قماراً ، ولا عرف عنه فحش في القول .

مستدرک الحاكم ج ٤ ص ٢٧٣ حديث رقم ٧٦١٩

٧- وعرف عنه منذ إدراكه رجحان العقل ، وأصالة الرأي وفي حادثة وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة دليل واضح على هذا ، هدمها وتجديد بنائها ، وفعلوا ، فلما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود فيما اختلفوا اختلفوا شديداً فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، وأرادت كل قبيلة أن يكون لها هذا الشرف ، وأشدت النزاع حتى تواعدوا للقتال ، ثم ارتضوا أن يحكم بينهم أول داخل من باب بني شيبه ، فكان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا بحكمه ، فلما أخبر بذلك ، حل المشكلة بما رضي عنه جميع المتنازعين ، فقد بسط رداءه ، ثم أخذ الحجر فوضعها فيه ، ثم أمرهم أن يأخذ كل قبيلة بطرف من الرداء ، فلما رفعوه ، وبلغ الحج موضعه ، أخذه ووضعها بيده ، فرضوا جميعاً ، وصان الله بوفور عقله وحكمته دماء العرب من أن تسفك إلى مدى لا يعلمه إلا الله .

٨- عرف عليه الصلاة والسلام في شبابه بين قومه بالصادق الأمين، وأشتهر بينهم بحسن المعاملة ، والوفاء بالوعد ، واستقامه السيرة ، وحسن السمعة ، مما رغب خديجة في أن تعرض عليه الأتجار بمالها في القافلة التي تذهب إلى مدينة بصر كل عام على أن تعطية ضعف ما تعطي رجلاً من قومها فلما عاد إلى مكة وأخبرها غلامها ميسرة بما كان من أمانته وإخلاصه ، ورأت الربح الكثير في تلك الرحلة ، أضعفت له من الأجر ضعف ما كانت أسمت له ، ثم حملها ذلك على أن ترغب في الزواج منه ، فقيل أن يتزوجها وهو أصغر منها بخمسة عشر عاماً ، وأفضل شهادة له بحسن خلقه قبل النبوة قول خديجة له بعد أن جاءه الوحي في غار حراء وعاد مرتعداً : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل (الضعيف) ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

٩- سافر مرتين خارج مكة ، أولاهما مع عمه أبي طالب حين كان عمره اثني عشرة سنة ، وثانيها حين كان عمره خمساً وعشرين سنة . متاجراً لخديجة بمالها وكانت كلتا الرحلتين إلى مدينة (بصرى) في الشام ، وفي كليتهما كان يسمع من التجار أحاديثهم ، ويشاهد آثار البلاد التي مر بها والعادات التي كان عليها سكانها .

١٠- حبيب الله إليه عليه الصلاة والسلام قبيل البعثة بسنوات أن يخرج إلى غار حراء - وهو جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة ، على قرب منها - يخلوا فيه لنفسه مقدار شهر - وكان في شهر رمضان - ليفكر في آلاء الله ، وعظيم قدرته ، واستمر على ذلك حتى جاءه الوحي ، ونزل عليه القرآن الكريم .

يستطيع الباحث أن يخرج من دراسة الوقائع السالفة بالدروس والنتائج التالية :

١- أنه كلما كان الداعية إلى الله ، أو المصلح الاجتماعي في شرف من قومه ، كان ذلك أدعى إلى استماع الناس له ، فإن من عادتهم أن يزدروا بالمصلحين والدعاة إذا كانوا من بيئة مغمورة ، أو نسب وضيع ، فإذا جاءهم من لا ينكرون شرف نسبه ، ولا مكانة أسرته الاجتماعية بينهم ، لم يجدوا ما يقولونه عنه إلا افتراءات يتحللون بها من الاستماع إلى دعوته ، والإصغاء إلى كلامه ، ولذلك كان أول ما سأل عنه هرقل أباسفيان بعد أن أرسل الرسول إلى هرقل كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام هو وقومه : كيف نسبه فيكم ؟ فأجاب أبو سفيان وهو يؤمئذ على شركه: هو من أشرفنا نسباً ولما انتهى هرقل من أسئلته ، وسمع جوابه عنها ، أخذ يشرح له سر الأسئلة التي توجه بها إليه حول محمد «رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له هرقل : سألتك كيف نسبه فيكم ؟ فزعمت أنه من أشرفكم نسباً ، وكذلك لا يختار الله النبي إلا من كرام قومه ، وأوسطهم نسباً .

صحيح أن الإسلام لا يقيم وزناً لشرف الأنساب تجاه الأعمال ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الذي يجمع بين شرف النسب وشرف الفعل ، أكرم وأعلى مكاناً وأقرب نجاحاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا ».

٢- أن في تحمل الداعية آلام اليتيم أو العيش ، وهو في صغره ما يجعله أكثر إحساساً بالمعاني الإنسانية النبيلة ، التي تجعله يشعر بآلام الضعفاء والبائسين ، ولا يوفر له هذا الرصيد شيء ، مثل أن يعاني في حياته بعض ما يعانية أولئك المستضعفون كالتيتامي والفقراء والمساكين .

٣- كلما عاش الداعية في جو أقرب على الفطرة ، وأبعد عن الحياة المعقدة ، كان ذلك أدعى إلى صفاء ذهنه ، وقوة عقله وجسمه ونفسه ، وسلامة منطقة وتفكير ، ولذلك لم يختار الله العرب لأداء رسالة الإسلام صدفة ولا عبثاً ، بل لأنهم كانوا بالنسبة إلى من يجاورهم من الأمم المتعدنة أصفي نفوساً ، وأسلم تفكيراً ، وأقوم أخلاقاً ، وأكثر احتمالاً لمكراه الحروب في سبيل دعوة الله ونشر رسالته في أنحاء العالم .

٤- لا يتأهل لمركز الدعوة وقيادتها إلا الذكي النبيه ، فالأغبياء والمتوسطون في نجابتهم أبعاد الناس عن جداره القيادة الفكرية ، الإصلاحية . أو الروحية . بل إن من سنن الحياة أن يتمكن من القيادة في أية ناحية من نواحي الحياة عن جدارة واستحقاق الأغبياء والمضطربون في تفكيرهم . والشاذون في آرائهم ، وإذا أتت الظروف واحداً من هؤلاء . فحملته إلى مركز القيادة . فسرعان ما يهوى إلى الحضيض ويتخلى عنه قومه بعد تعرفهم على غباوته ، أو اضطراب تفكيره .

٥- إن ينبغي للداعية أن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي أو مورد شريف لا أستجداء فيه ، ولا ذلة ولا مهانة .

إن الدعاة الصادقين الشرفاء يترفعون بأنفسهم أن يعيشوا من صدقات الناس وأعطياتهم . وأية كرامة تكون لهم في نفوس قومهم بعد بذل السؤال والاستجداء ولو لم يكن صريحاً مكشوفاً ، فإذا وجدنا من يدعي الدعوة والإرشاد . وهو يستكثر من أموال الناس يشتى أنواع الحيل . فإننا نجزم بمهانة نفسه في نفسه ، فكيف في نفوس قومه وجيرانه . ومن أرتضى لنفسه المهانة ، فكيف يستطيع أن يدعو إلى مكارم الأخلاق . ويقف في وجه الطغاة والمفسدين ، ويحارب الشر والفساد . ويبعث في الأمة روح الكرامة والشرف والاستقامة؟

٦- إن استقامة الداعية في شبابه وحسن سيرته ، أدعى إلى نجاحه في دعوته إلى الله ، وإصلاح الإخلاص ، ومحاربة المنكرات ، إذا لا يجد في الناس من يغمزه في سلوكه الشخصي قبل قيامه بالدعوة ، وكثيرا ما رأينا أناسا قاموا بدعوة الإصلاح ، وبخاصة إصلاح الأخلاق ، وكان من أكبر العوامل في إعراض الناس عنهم ما يذكرونه لهم من ماض ملوث ، وخلق غير مستقيم بل إن هذا الماضي السيء يكون مدعاة للشك في صدق مثل هؤلاء الدعاة ، بحيث يتهمون بالتستر وراء دعوة الإصلاح لمأرب خاصة ، أو يتهمون بأنهم ما بدؤوا بالدعوة إلى الإصلاح إلا بعد أن قضوا مآربهم من ملذات الحياة وشهراتها ، وأصبحوا في وضع أو عمر لا أمل لهم فيه بالاستمرار فيما كانوا يبلغون فيه من عرض أو مال أو شهرة أو جاه .

أما الداعية المستقيم في شبابه ، فانه يظل أبداً رافع الرأس ناصع الجبين ، لا يجد أعداء الإصلاح سبيلاً إلى غمزه بماض قريب أو بعيد ، ولا يتخذون من هذا الماضي المنحرف تكأة للتشهير به ، ودعوة الناس إلى الاستخفاف بشأنه .

نعم إن الله يقبل توبة التائب المقبل عليه بصدق وإخلاص ، ويمحو بحسناته الحاضرة سيئاته المنصرمة ، ولكن هذا شيء غير الداعية الذي ينتظر لدعوته النجاح إذا استقامت سيرته وحسنت سمعته .

٧- إن تجارب الداعية بالسفر ، ومعاشرة الجماهير ، والتعرف على عوائد الناس وأوضاعهم ومشكلاتهم ، لها أثر كبير في نجاح دعوته ، فالذين يخالطون الناس في الكتب والمقالات دون أن يختلطوا بهم على مختلف اتجاهاتهم ، قوم مخفقون في دعوة الإصلاح ، لا يستمع الناس إليهم ، ولا تستجيب العقول لدعوتهم ، لما يرى فيهم الناس من جهل بأوضاعهم ومشكلاتهم ، فمن أراد أن يصلح المتدينين ، عليه أن يعيش معهم في مساجدهم ، ومجالسهم ، ومجتمعاتهم ، ومن أراد أن يصلح حال العمال والفلاحين ، عليه أن يعيش معهم في قراهم ، ومصانعهم ، ويؤاكلهم في بيوتهم ، ويتحدث إليهم في مجتمعاتهم ، ومن أراد أن يصلح المعاملات الجارية بين الناس ، عليه أن يختلط بهم في أسواقهم ، ومتاجرهم ، ومصانعهم ، وأنديتهم ، ومجالسهم ، ومن أراد أن يصلح الأوضاع السياسية ، عليه أن يختلط بالسياسيين ، ويتعرف إلى تنظيماتهم ، ويستمع لخطبهم ، ويقرأ لهم برامجهم وأحزابهم ، ثم يتعرف إلى البيئة التي يعيشون فيها ، والثقافة التي نهلوا من معينها ، والاتجاه الذي يندفعون نحوه ، ليعرف كيف يخاطبهم بما لا تنفر منه نفوسهم .

وهكذا يجب أن يكون للداعية من تجاربه في الحياة ، ومعرفته بشؤون الناس ، ما يمكنه من أن يحقق قول الله تعالى : **« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ »** [النحل : ١٢٥] ، وما أبدع القول المأثور : خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، اتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ .

٨- يجب على الداعية إلى الله أن تكون له بين الفينة والفينة أوقات يخلو فيها بنفسه ، تتصل فيها روحه بالله جل شأنه ، وتصفو فيها نفسه من قاذورات الأخلاق الذميمة ، والحياة المضطربة من حوله ، ومثل هذا الخلو تدعوه إلى محاسبة نفسه أن قصرت في خير ، أو زلت في اتجاه ، أو جانبت سبيل الحكمة ، أو أخطأت في سبيل ومنهج أو طريق ، أو أن غمست مع الناس في الجدال والنقاش حتى أنسته تذكر الله والأنس به وتذكر الآخرة وجنتها ونارها ، والموت وغصصه وآلامه ، ولذلك كان التهجد وقيام الليل فرضاً في حق النبي صلى الله عليه وسلم مستحباً في حق غيره ، وأحق الناس بالحرص على هذه الناقله هم الدعاة إلى الله وشريعته وجنته ، وللخلة والتهجد والقيام لله بالعبودية في أعقاب الليل لذة لا يدركها إلا من أكرمه الله بها ، وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول في اعقاب تهجده وعبادته : نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها .

وحسبنا قول الله تبارك وتعالى مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم مستحبياً (يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً ، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً) [المزملة ١-٧] .

في السيرة منذ البعثة حتى الهجرة إلى الحبشة

أ - الوقائع

في هذه الفترة تثبت لنا الوقائع التاريخية التالية :

١- نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم : لما تم للنبي صلى الله عليه وسلم أربعون سنة . نزل عليه جبريل بالوحي في يوم الاثنين لسبع عشر خلت من رمضان ، ويحدثنا الإمام البخاري رضي الله عنه في « صحيحه » بالسند المتصل إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن كيفية نزول الوحي عليه ، فتقول :

« أول ما بُدئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يزحف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقالت زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد حسبت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة يا بن عم اسمع من بن أخيك فقال له ورقة يا بن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا لئبني فيها جذع لئبني أكون حيا إذ يخزجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينسب ورقة أن توفي وفتر الوحي » .

وفي رواية ابن هشام عن ابن إسحاق : أن جبريل جاءه وهو نائم في غار حراء بنمط - وعاء - من ديباج فيه كتاب ، فقال ، اقرأ .. الخ قال : فقرأتها ، ثم انتهت فانصرف عني وهببت من نومي ، فكأنما كتبت في قلبي كتابا ، قال : فخرجت حتى إذا كانت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر . فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال : فوقفت أنظر إليه ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في أفق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي .. الخ .

فتح الباري ج ٨ ص ٧١٨ مرسل

٢- كان أول من آمن به ودخل في الإسلام زوجته خديجة رضي الله عنها ، ثم أبين عمه علي رضي الله عنه وهو أبين عشر سنين ، ثم مولاه زيد بن حارثة ، ثم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان أول من أسلم من العبيد بلال بن أبي رباح الحبشي وعلى ذلك تكون خديجة أول من آمن به إطلاقاً ، وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معها آخر يوم الاثنين وهو أول يوم من صلاته ، وكان الصلاة ركعتين بالعادة ، وركعتين بالعشي .

٣- ثم فتر الوحي بعد ذلك فترة من الزمن اختلف الروايات في تقديرها ، فأقصاها ثلاث سنوات ، وأدناها ستة أشهر وهو الصحيح .

وقد شق انقطاع الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحزنه ذلك كثيراً ، حتى كاد يخرج إلى الجبال فيهم بأن يتردى من رؤوسها ، ظنا منه أن الله قلاه بعد أن أختاره لشرف الرسالة ، ثم عاد الوحي إليه بعد ذلك كما يروي الإمام البخاري في « صحيحه » عن جابر بن عبد الله الأنصاري رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بجراة جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأندر (إلى قوله) والرجز فأهجر (فحمي الوحي وتتابع تابعه عبد الله بن يوسف وأبو صالح وتابعه هلال بن رداد عن الزهري وقال يونس ومعمر بوادره صحيح البخاري ج ١ ص ٥

٤- بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يدعو إلى الإسلام من وثق بعقله ثلاث سنوات كاملة ، حتى اسلم عدد من الرجال والنساء ممن عرفوا برحجان الرأي وسلامة النفس .

٥- أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن بلغ عدد الداخلين في الإسلام نحواً من ثلاثين أن يبلغ الدعوة جهراً ، وذلك في قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) [الحجر : ٩٤] .

٦- ابتدأت بذلك مرحلة الإيذاء للمؤمنين الجدد ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد هال المشركين أن يسفه الرسول احلامهم ، ويعيب آلهتهم ويأتيهم بدين جديد يدعو إلى إله واحد لا تدرکه العيون والأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير .

٧- كان الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة يجتمع بالمؤمنين سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم الذي دخل في الإسلام أيضاً ، وكان الرسول يتلو عليهم ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم ، ويعلمهم من أحكام الدين وشرائعه ما كان ينزل حينئذ .

٨- حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش قال حدثني عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن بن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت (وأنذر عشيرتک الأقربين) صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي يا بني فھر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبأ لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت «تبأ يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب»

٩- رغبت قريش في أن تنال من الرسول ، فحماه عمه أبو طالب ، وامتنع عن تسليمه اليهم ، ثم طلب بعد ذهابهم أن يخفف من دعوته ، فظن أن عمه خاذله ، فقال كلمته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس في يمني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أن أهلك دونه ، ما تركته » .

مختصر السيرة ج ١ ص ٩٢

١٠- إشتد أذى المشركين بعد ذلك للرسول وصحابته ، حتى مات منهم من مات تحت العذاب ، وعمي من عمي .

١١- لما رأت قريش ثبات المؤمنين على عقيدتهم ، قررت مفاوضة الرسول على أن تعطيه من المال ما يشاء ، أو تملكه عليها ، فأبى ذلك كله .

١٢- لما رأى الرسول تعنت قريش واستمرارها في تعذيب أصحابه ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن فيها ملكاً لا يظلم أحداً عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه »

فهاجروا للمرة الأولى اثنا عشر رجلاً ، وأربع نسوة ، ثم عادوا بعد أن علموا بإسلام عمر وإظهار الإسلام ، لكنهم ما لبثوا أن عادوا ومعهم آخرون من المؤمنين ، وقد بلغ عددهم في الهجرة الثانية إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً ، ومن النساء إحدى عشرة .

١٣- مقاطعة المشركين لرسول الله صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني هاشم وبني المطلب أن لا يبايعوهم ، ولا يناكحوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ، واستمرت المقاطعة سنتين أو ثلاثاً ، لقي فيها الرسول ومن معه في هذه المقاطعة جهداً شديداً ، ثم انتهت المقاطعة بمسعى عقلاء قريش .

ب - الدروس والعظات

١- إن الله إذا أراد لعبده أن يوجهه لدعوة الخير والإصلاح القى في قلبه كُره ما عليه مجتمعه من ضلال وفساد .

٢- إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن يستشر للنبوة ولا يحلم بها ، وإنما كان يلهمه الله الخلوة للعبادة تطهيراً ، وإعداداً روحياً ليتحمل أعباء الرسالة ، ولو كان عليه الصلاة والسلام يستشر للنبوة ، لما فزع من نزول الوحي عليه ، ولما نزل إلى خديجة يستفسرها عن سر تلك الظاهرة التي رآها في غار حراء ، ولم يتأكد من أنه رسول إلا بعد رؤية جبريل يقول له : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، وإلا بعد أن أكد له ولخديجة ، ورقة بن نوفل أن ما رآه في الغار هو الوحي الذي كان ينزل على موسى عليه الصلاة والسلام .

٣- إن دعوة الإصلاح إذا كانت غريبة على معتقدات الجمهور وعقليته ، ينبغي أن لا يجهر بها الداعية حتى يؤمن بها عدد يضحون في سبيلها بالغالي والرخيص ، حتى إذا نال صاحب الدعوة أذى ، قام أتباعه المؤمنون بدعوتهم بواجب الدعوة ، فيضمن بذلك استمرارها .

٤- إن رسول الله صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فاجأ العرب بمالم يكونوا يألفونه، وقد استنكروا دعوتهم أشد الاستنكار ، وكان كل همهم القضاء عليه وعلى أصحابه ، فكان ذلك رداً تاريخياً على بعض دعاة القومية الذين زعموا أن محمداً عليه الصلاة والسلام إنما كان يمثل في رسالته آمال العرب ومطامحهم حينذاك ، وهو زعم مضحك ترده وقائع التاريخ الثابتة كما رأينا . وما حمل هذا القائل وأمثاله على هذا القول إلا الغلو في دعوى القومية وجعل الإسلام امراً منبتقاً من ذاتية العرب وتفكيرهم ، وهذا إنكار واضح لنبوة الرسول وخفض عظيم لرسالة الإسلام .

٥- إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد ، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسمو نفوسهم وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل ، وما يأملونه من رضى الله جل شأنه أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد . إن السيطرة في المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم لا لأجسامهم ، وهم يسرعون على تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يباليون بما تتطلبه جسامهم من راحة وشبع ولذة ، بهذا تنتصر الدعوات ، وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات .

٦ - إن في قول الرسول صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك القول لعمه ابي طالب ، وفي رفضه ما عرضته عليه قريش من مال وملك ، دليل على صدقه في دعوى الرسالة وحرصه على هداية الناس ، وكذلك ينبغي أن يكون الداعية مصمماً على الاستمرار في دعوته مهما تألب عليه المبطلون ، معرضاً عن إغراء المبطلين بالجاه والمناصب ، فالمتاعب في سبيل الحق لدى المؤمنين راحة لضمائرهم وقلوبهم . ورضي الله وجزته أعز وأغلى عندهم من كل مناصب الدنيا وجاهها وأموالها .

٧- إن على الداعية أن يجتمع بأئصاره على فترات في كل نهار أو أسبوع ، ليزيدهم إيماناً بدعوتهم ، وليعلمهم طرقها وأساليبها وآدابها ، وإذا خشى على نفسه وجماعته من الاجتماع بهم علناً وجب عليه أن يكون اجتماعه بهم سراً لئلا يجمع المبطلون أمرهم فيقضوا عليهم جميعاً ، أو يزدادوا في تعذيبهم واضطهادهم .

٨- إن على الداعية أن يهتم بأقربائه، فيبلغهم دعوة الإصلاح ، فإذا أعرضوا ، كان له عذر أمام الله .

٩- إن على الداعية إذا وجد جماعته في خطر على حياتهم أو معتقداتهم من الفتنة ، أن يهيب لهم مكاناً يأمنون فيه من عدوان المبطلين ، ولا ينافي ذلك ما يجب على دعاة الحق من تضحية ، فإنهم إذا كانوا قلة استطاع المبطلون أن يقضوا عليهم ، فيتخلصوا من دعوتهم ، وفي وجودهم في مكان آمن ضمان لاستمرار الدعوة وانشارها .

١٠- إن في أمر الرسول أصحابه أولاً وثانياً بالهجرة إلى الحبشة ، ما يدل على أن رابطة الدين بين المتدينين ولو اختلفت دياناتهم هي أقوى وأوثق من رابطتهم مع الوثنيين والملحدين ، فالديانات السماوية في مصدرها وأصولها الصحيحة متفقة في الأهداف الاجتماعية الكبرى ، كما هي متفقة في الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر .

١١- إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر ، فهم كلما أخفقت لهم سيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق ، ابتكروا وسائل أخرى ، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي و يلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة .

فتح الباري ج ٧ ص ١٨٨

صحيح البخاري ج ٤ ص ١٧٨٧

صحيح البخاري ج ١ ص ٤

في السيرة بعد هجرة الحبشة إلى الهجرة للمدينة

أ - الوقائع التاريخية

تتميز أحداث هذه الفترة بالوقائع البارزة التالية :

١- مات أبو طالب عم الرسول في السنة العاشرة من البعثة ، كان في حياته شديد الدفاع عن ابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت قريش لا تستطيع أن تنال النبي بأذى في نفسه طيلة حياة أبي طالب احتراماً وهيبه له ، فلما مات أبو طالب ، جرئت قريش على تشديد الأذى للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كانت وفاته مبعث حزن عميق للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حرص النبي أن يقول أبو طالب كلمة الإسلام وهو على فراش الموت ، فأبى أن يقولها خشية أن يلحقه العار من قومه .

٢- ماتت خديجة رضي الله عنها في تلك السنة نفسها ، وقد كانت خديجة تخفف عن الرسول همومه وأحزانه لما يلقاه من عداء قريش ، فلما ماتت حزن عليها حزناً شديداً ، وسمي ذلك العام الذي مات فيه عمه أبو طالب وزوجه خديجة : «عام الحزن» .

٣- ولما اشتد على الرسول كيد قريش وأذاها بعد وفاة عمه وزوجه ، توجه إلى الطائف لعله يجد في ثقيف حسن الإصغاء لدعوته والانتصار لها ، ولكنهم ردوه رداً غير جميل ، وأغروا به صبيانهم ، ففدوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الطاهرتين ، ثم التجأ إلى بستان من بساتين الطائف ، وتوجه إلى الله بهذا الدعاء الخاشع : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أو إلى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل بي سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

مجمع الزوائد ج ٦ ص ٣٥ فيه ابن اسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات

٤- عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف دون أن تستجيب ثقيف لدعوته ، اللهم الا ما كان من اسلام « عداس » غلام عتية وشيبة ابني ربيعة ، وكان غلاماً نصرانياً ، طلب إليه سيده أن يقدم قطعاً من العنب إلى الرسول وهو في البستان لما رأيا من إعيائه وتهجم ثقيف عليه فلما قدم عداس العنب للرسول صلى الله عليه وسلم أخذ الرسول بيده في أكله قائلاً : باسم الله ، فلفت ذلك نظر عداس ، اذ لا يوجد في القوم من يقول مثل هذا . وبعد حديث بين عداس والنبي اسلم عداس .

الراوي: عبدالله بن جعفر بن أبي طالب - خلاصة الدرجة: ضعيف - المحدث: الألباني - المصدر: ضعيف الجامع - الصفحة أو الرقم: ١١٨٢

٥- وقعت معجزة الإسراء والمعراج وقد اختلف في تاريخ وقوعها ، والمؤكد أنها وقعت قبل الهجرة في السنة العاشرة من بعثته أو بعدها ، والصحيح الذي عليه جماهير العلماء أنهما وقعا في ليلة واحدة يقظة بالجسد والروح ، اسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السماوات العلى ، ثم عاد بيته في مكة تلك الليلة ، وأخبر قريشاً بأمر المعجزة ، فهزئت وسخرت ، وصدقته أبو بكر وأقوياء الإيمان .

٦- وفي هذه الليلة فرضت الصلوات خمساً على كل مسلم بالغ عاقل .

٧- وفي أثناء مرور الرسول صلى الله عليه وسلم على القبائل في موسم الحج ، كعادته في كل عام - لدعوتهم إلى الإسلام وترك عبادة الاوثان ، وبينما هو عند العقبة التي ترمي عندها الجمار لقي رهطاً من الأوس والخزرج ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأسلموا ، وكان عددهم سبعة ، ثم عادوا إلى المدينة ، فذكروا لقومهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وما دانوا به من الإسلام .

٨- وفي العام التالي لاثنتي عشر سنة من البعثة و في موسم الحج جاء اثنا عشر رجلاً من الأنصار ، فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبايعوه ، فلما عادوا أرسل معهم مصعب بن عمير إلى المدينة ليقري المسلمين فيها القرآن ، ويعلمهم الأسلام ، فانتشر الإسلام في المدينة انتشاراً كبيراً .

٩- وفي العام الذي يليه حضر من الأنصار جماعة في موسم الحج فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم مستخفين وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين ، وبايعوه على النصر والتأييد ، وعلى أن يمنعوه مما يمنعوه منه نساءهم وأبناءهم ، وعادوا إلى المدينة بعد أن اختار منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم .

ب - الدروس والعظات

١- قد يحمي الداعية أحد أقربائه ممن ليسوا على دعوته ، وفي ذلك فائدة للدعوة حين تكون مستضعفة ، إذا لم يسايرها على ما هي عليه من منكرات .

٢- الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تذلل كثيراً من الصعاب لزوجها الداعية إذا شاركته في همومه وآلامه ، وبذلك تخفف عنه عبء هذه الهموم ، وتبث في نفسه الاستمرار والثبات ، فيكون لها أثر في نجاح الدعوة وانتصارها ، وموقف السيدة خديجة رضي الله عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى لما تستطيع الزوجة المؤمنة بدعوة الخير أن تلعبه من دون كبير في نجاح زوجها الداعية ، وثباته ، واستمراره في دعوته ، و فقد مثل هذه الزوجة في احتدام معركة الإصلاح خسارة كبيرة لا يملك معها زوجها الداعية إلا أن يحزن وبأسي .

٣- والحزن على فقد القريب الحامي لدعوة الحق غير المؤمن بها ، وعلى فقد الزوجة المؤمنة المخلصة ، حزن تقتضيه طبيعة ولذلك قال الرسول لما مات أبو طالب: « رحمك الله وغفرلك، لا أزال استغفر لك حتى ينهاني الله »

الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٤

فاقتدى المسلمون برسولهم يستغفرون لموتاهم المشركين ، حتى نزل قول الله تبارك وتعالى : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قَرَبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) . [التوبة : ١١٣] فامتنع النبي عن الاستغفار لأبي طالب ، كما امتنع المسلمون عن الاستغفار لموتاهم .

ولذلك أيضاً ظل الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته يذكر فضل خديجة ، ويترحم عليها ، ويبرر صديقاتها ، حتى كانت عائشة تغار منها - وهي متوفاة - لكثرة ما كانت تسمع من ثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليها ، فقد روى البخاري عنها رضي الله عنها أنها قالت : ما عَزَّتْ على أَحَدٍ من نِسَاءِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما عَزَّتْ على خَدِيجَةَ وما رَأَيْتُهَا وَلَكِنْ كَانَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا وَرَبِّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَغْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ فَرَبِّمَا قَلْتُ لَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةً إِلَّا خَدِيجَةَ فيقول إِنَّهَا كَانَتْ وَكَأَنَّتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ

صحيح البخاري ٣ ص ١٣٨٩

٤- في توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف بعد أن أعرضت عنه مكة ، دليل التصميم الجازم في نفس الرسول على الاستمرار في دعوته ، وعدم اليأس من استجابة الناس لها ، وبحث عن ميدان جديد للدعوة بعد أن قامت الحواجز دونها في ميدانها الأول ، كما أن في إغراء تقيف صبيانها وسفهاءها بالرسول ، دليل على أن طبيعة الشر واحدة أينما كانت ، وهي الاعتماد على السفهاء في إيذاء دعاة الخير .

وفي سيل الدماء من قدمي النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو النبي الكريم ، أكبر مثل لما يتحملة الداعية في سبيل الله من أذى واضطهاد ، أما دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في البستان ، ففيه تأكيد لصدق الرسول في دعوته ، وتصميم على الاستمرار فيها مهما قامت في وجهه الصعاب ، وأنه لا يهمله إلا رضي الله وحده ، فلا يهمله رضي الكبراء والزعماء ، ولا رضي العامة والدهماء كما أن فيه استمداد القوة من الله باللجوء إليه والاستعانة به عندما يشتد الأذى بالداعية ، وفيه أن خوف الداعية كل الخوف هو من سخط الله عليه وغضبه ، لا من سخط شيء سواه .

٥- في معجزة الإسراء والمعراج أسرار كثيرة نشير إلى ثلاثة منها فحسب .

وأولاً - ففيها ربط قضية المسجد الأقصى وما حوله - فلسطين - بقضية العالم الإسلامي إذا أصبحت مكة بعد بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم مركز تجمع العالم الإسلامي ووحدة أهدافه ، وأن الدفاع عن فلسطين دفاع عن الإسلام نفسه ، يجب أن يقوم به كل مسلم في شتى أنحاء الأرض ، والتفريط في الدفاع عنها وتحريرها ، تفريط في جنب الإسلام ، وجناية يعاقب الله عليها كل مؤمن بالله ورسوله .

وثانياً - فيها رمز إلى سمو المسلم ، ووجوب أن يرتفع فوق أهواء الدنيا وشهواتها ، وأن ينفذ عن غيره من سائر البشر بعلو المكانة، وسمو الهدف ، والتحليق في أجواء المثل العليا دائماً وابدأ .

وثالثاً : فيها إشارة على إمكان ارتياد الفضاء والخروج عن نطاق الجاذبية الأرضية ، فلقد كان رسولنا في حادثة الإسراء والمعراج أول رائد للفضاء في تاريخ العالم كله ، وأن ريادة الفضاء والعودة إلى الأرض بسلام أمر ممكن إن وقع لرسول الله بالمعجزة في عصره ، فإنه من الممكن أن يقع للناس عن طريق العلم والفكر .

٦- في فرض الصلاة ليلة الاسراء والمعراج إشارة إلى الحكم التي من أجلها شرعت الصلاة ، فكان الله يقول لعبادة المؤمنين : إذا كان معراج رسولكم بجسمه وروحه إلى السماء معجزة ، فليكن لكم في كل يوم خمس مرات معراج تعرج فيه أرواحكم وقلوبكم إلى ، ليكن لكم عروج روعي تحققون به الترفع عن أهوائكم وشهواتكم ، وتشهدون به من عظمتي قدرتي ووحدانيتي ، ما يدفعكم إلى السيارة على الأرض ، لا عن طريق الاستعباد والقهر والغلبة ، بل عن طريق الخير والسمو ، عن طريق الطهر والتسامي ، عن طريق الصلاة .

٧- وفي عرض الرسول نفسه على القبائل في موسم الحج دليل على أن الداعية لا ينبغي ان يقتصر في دعوة الناس إلى الخير ضمن مجالسه وفي بيئته فحسب ، بل يجب أن يذهب إلى كل مكان يجتمع فيه الناس أو يمكن أن يجتمعوا فيه ، وأن لا ينبغي أن يبأس من إعراضهم عنه مرة بعد أخرى ، فقد يهيب الله له أنصاراً يؤمنون بدعوته الخيرة من حيث لا يفكر ولا يحتسب ، وقد يكون لهذه القلة التي تهتدي به في بعض المناسبات شأن كبير في انتشار دعوة الحق والخير ، وفي انتصارها النصر النهائي على الشر واعوانه ، فلقد كان لإيمان السبعة الأوائل من الأنصار الذين التقوا برسول الله أول مرة ما أدى إلى تغلغل الإسلام في المدينة ، وكان لهذا التغلغل أثر في انتشار الإسلام وسيطرته عليها ، مما مهد للمؤمنين المضطهدين في مكة أن يجدوا في المدينة مهاجراً يتمركزون فيه ، ولرسوله الله صلى الله عليه وسلم موطئاً أميناً يقيم فيه دولته ، ويبث منه دعوته ، وينطلق منه أصحابه إلى مقاومة الشرك والمشركين بالحروب والمعارك التي كانت نهايتها انتصاراً خالداً للإيمان ، وهزيمة أبدية للشرك ، فرضى الله عنهم الانتصار من أوس وخزرج ، كم كان لهم على الإسلام والمسلمين والعالم كله من فضل لا ينتهي خيره ، ورضي الله عن إخوانهم المهاجرين الذين سبقوهم إلى الإيمان ، وضحوا في سبيله بالغالي من الاموال والأوطان ، وألحقنا بهم جميعاً في جنة الرضوان

منذ الهجرة حتى استقرار النبي في المدينة

آ - الوقائع التاريخية

١- علمت قريش باسلام فريق من أهل يثرب ، فاشتد أذاها للمؤمنين بمكة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة ، فهاجروا مستخفين ، إلا عمر رضي الله عنه ، فإنه اعلم مشركي قريش بهجرته ، وقال لهم : من أراد أن تتكلمه أمه فليلق بي غدا ببطن هذا الوادي ، فلم يخرج له أحد .

٢- ولما أيقنت قريش أن المسلمين قد أصبحوا في المدينة في عزة ومنعة ، عقدت مؤتمرات في دار الندوة للتفكير في القضاء على الرسول نفسه ، فاستقر رأيهم على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى جلدًا ، فيقتلوه جميعًا ، فيتفرق دمه في القبائل ، ولا يقدر بنو مناف على حربهم جميعًا ، فيرضوا بالدية ، وهكذا اجتمع الفتيان الموكلون بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم على بابه ليلة الهجرة ينتظرون خروجه ليقتلوه .

٣- لم ينم الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الليلة على فراشه . وإنما طلب من علي رضي الله عنه أن ينام مكانه ، وأمره إذا أصبح أن يرد الودائع التي كان أودعها كفار قريش عنده إلى أصحابها ، وغادر الرسول صلى الله عليه وسلم بيته دون أن يشاهده الموكلون بقتله ، وذهب إلى بيت أبي بكر ، وكان قد هيا من قبل راحلتين له وللرسول صلى الله عليه وسلم ، فعزما على الخروج ، واستأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط الديلي وكان مشركاً ليدلها على طريق المدينة ، على أن يتجنب الطريق المعروفة إلى طريق أخرى لا يهتدي إليها كفار قريش .

٤- خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول لسنة ثلاث خمسين من مولده عليه الصلاة والسلام ، ولم يعلم بأمر هجرته إلا علي رضي الله عنه وأل أبي بكر رضي الله عنه ، وعلمت عائشة وأسماء بنتا أبي بكر في تهيئة الزاد لهما ، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها - وهو ما يشد به الوسط - فربطت به على فم الجراب - وعاء الطعام - فسميت لذلك : ذات النطاقين ، واتجها مع دليلهما عن طريق اليمين حتى وصلا إلى « غار ثور » ، فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف « حاذق » لحن «سريع الفهم» فيخرج من عندهما بالسحر ، ويصبح مع قريش بمكة كأنه كان نائماً فيها ، فلا يسمع من قريش أمراً يبيتونه من المكروه لهما إلا وعاه حتى يأتيهما في المساء بخبره .

٥- قامت قيامة قريش لنجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وخرجوا يطلبونه في طريق مكة المعتاد ، فلم يجدوه ، واتجهوا إلى طريق اليمين ، ووقفوا عند فم « غار ثور » و أبو بكر رضي الله عنه يرى أقدامهم وهم واقفون على فم الغار ، فيرتعد خوفاً على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول له : والله يا رسول الله ، ولو نظر أحدهم على موطن قدمه لرأنا ، فيطمئننه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما « ؟

٦- أرسلت قريش في القبائل تطمع كل من عثر على الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، أو قتله ، أو أسره ، في دفع مبلغ ضخم من المال يغري الطامعين ، فانتدب لذلك سراقة بن جعشم ، وأخذ على نفسه أن يتفقد لها ليظفر وحده بالجائزة .

٧- قال بن شهاب وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو بن أخي سراقه بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقه بن جعشم يقول جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر دبة كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال يا سراقه إني قد رأيت أنفا أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه قال سراقه فعرفت أنهم هم فقلت له إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفريسي وهي من وراء أكمة فتخبسها علي وأخذت رجلي فخرجت به من ظهر البيت فحططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فريسي فركبتنا فرفعتنا تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فريسي فخررت عنها ففمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام فاستقسمت بها أضربهم أم لا فخرج الذي أكره فركبت فريسي وعصيت الأزام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله e وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات سأخت يدا فريسي في الأرض حتي بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكذ تخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقوا فركبت فريسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله e فقلت له إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزاني ولم يسألاني إلا أن قال أخف عنا فسألته أن يكتب لي كتاباً أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

٨- وصل الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول وبعد أن طال انتظار أصحابه له ، يخرجون كل صباح إلى مشارف المدينة ، فلا يرجعون إلا حين تحمى الشمس وقت الظهيرة ، فلما حضر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فرحوا به فرحاً عظيماً ، وأخذت الولائد ينشدون بالدفوف :

طلع البدر علينا *** من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا *** ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا *** جئت بالأمر المطاع

٩- كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في طريقه إلى المدينة قد وصل إلى « قباء » وهي قرية جنوب المدينة على بعد ميلين منها ، فأسس فيها أول مسجد بني في الإسلام ، وأقام فيها أربعة أيام ، ثم سار صباح الجمعة إلى المدينة ، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف ، فبني مسجداً هناك ، وأقام أول جمعة في الإسلام ، وأول خطبة خطبها في الإسلام ، ثم سار إلى المدينة ، فلما وصلها كان أول عمل عمله بعد وصوله أن أختار المكان الذي بركت فيه ناقته ليكون مسجداً له ، وكان المكان لغلامين يتيمين من الأنصار ، فساومهما على ثمنه ، فقالا : بل نهبه لك يارسول الله ، فأبي إلا بيناعه منهما بعشرة دنانير ذهباً أداها من مال أبي بكر ، ثم ندب المسلمين إلى الاشتراك في بناء المسجد فأسرعوا إلى ذلك ، وكان صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن ، حين تم بناء المسجد ، جدرانه من لبن ، وسقفه من جريد النخل مقاما على الجدوع .

١٠- ثم كان أن آخى المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل أنصاري اخاً من المهاجرين ، فكان الأنصاري يذهب بأخيه المهاجر على بيته ، فيعرض عليه يقسم معه كل شيء في بيته .

١١- ثم كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وقد ذكر ابن هشام هذا الكتاب بطوله في سيرته ، وهو يتضمن المبادئ التي قامت عليها أول دولة في الإسلام ، وفيها من الانسانية والعدالة الاجتماعية والتسامح الديني والتعاون على مصلحة المجتمع ما يجدر بكل طلب أن يرجع إليه ويتفهمه ويحفظ مبادئه .

ونحن نذكر المبادئ العامة التي تضمنتها هذه الوثيقة التاريخية الخالدة :

- ١- وحدة الامة المسلمة من غير تفرقة بينها .
- ٢- تساوي أبناء الأمة في الحقوق والكرامة .
- ٣- تكاتف الأمة دون الظلم والإثم والعدوان .
- ٤- اشتراك الأمة في تقرير العلاقات مع أعدائها لا يسالم مؤمن دون مؤمن .
- ٥- تأسيس المجتمع على أحسن النظم وأهداها وأقومها .
- ٦- مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام ، وجوب الامتناع عن نصرتهم .
- ٧- حماية من أراد العيش مع المسلمين مسالماً متعاوناً ، والامتناع عن ظلمهم والبغي عليهم .
- ٨- لغير المسلمين دينهم وأموالهم ، لا يجبرون على دين المسلمين ، ولا تؤخذ منهم أموالهم .
- ٩- على غير المسلمين أن يسهموا في نفقات الدول كما يسهم المسلمون .
- ١٠- على غير المسلمين أن يتعاونوا معهم لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان .
- ١١- وعليهم أن يشتركوا في نفقات القتال مادامت الدولة في حالة حرب .
- ١٢- على الدولة أن تنصر من يظلم منهم ، كما تنصر كل مسلم يعتدي عليه .
- ١٣- على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم .
- ١٤- إذا كانت مصلحة الأمة في الصلح ، وجب على جميع أبنائها مسلمين وغير مسلمين أن يقبلوا بالصلح .
- ١٥- لا يؤاخذ إنسان بذنوب غيره ، ولا يجني جان إلا على نفسه وأهله .
- ١٦- حرية الانتقال في داخل الدولة وإلى خارجها مصونة بحماية الدولة .
- ١٧- لا حماية لأثم ولا لظالم .
- ١٨- المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى ، لا على الإثم والعدوان .
- ١٩- هذه المبادئ تحميها قوتان :

قوة معنوية ، وهي : إيمان الشعب بالله ومراقبته له ورعاية الله لمن بر و وفى .

وقوة مادية ، وهي : رئاسة الدولة التي يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم .

ب - الدروس والعظات

١- إن المؤمن إذا كان واثقاً من قوته لا يستخفي في عمله ، بل يجاهر فيه ، ولا يبالي بأعداء دعوته ما دام واثقاً من التغلب عليهم ، كما فعل عمر رضي الله عنه حين هاجر ، وفي ذلك دليل أيضاً على أن موقف القوة يرهب أعداء الله ، ويلقي الجزع في نفوسهم ، ولا شك أنهم لو أرادوا أن يجتمعوا على قتل عمر لاستطاعوا ، ولكن موقف عمر الجريء ألقى الرعب في نفس كل واحد منهم ، فيخشي من تعرض له أن تتكلمه أمه ، وأهل الشر ضنينون بحياتهم ، حريصون عليها .

٢- حين يبأس المبطلون من إيقاف دعوة الحق والإصلاح وحين يفلت المؤمنون من أيديهم ويصبحون في منجى من عدوانهم ، يلجؤون آخر الامر إلى قتل الداعية المصلح ، ظنا منهم أنهم إن قتلوه تخلصوا منه ، وقضوا على دعوته ، وهذا هو تفكير الأشرار أعداء الإصلاح في كل عصر ، وقد شاهدناه ورأينا مثله في حياتنا .

٣- إن الجندي الصادق المخلص لدعوة الإصلاح ، يفدي قائده بحياته ، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة ، وفي هلاكه خذلانها ووهنها ، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة من بيته على فراش الرسول صلى الله عليه وسلم تضحية بحياته في سبيل الإبقاء على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قریش على رأس علي رضي الله عنه انتقاماً منه ، لأنه سهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاة ، ولكن علياً رضي الله عنه لم يبال بذلك ، فحسبه أن يسلم رسول صلى الله عليه وسلم نبي الأمة وقائد الدعوة .

٤- وفي ايداع المشركين ودائعهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع محاربتهم له وتصميمهم على قتله ، دليل على أن أعداء الإصلاح يوقنون في قراره نفوسهم باستقامة الداعية وأمانته ونزاهته ، وأنه خير منهم سيرة ، وأتقى سريرة ولكن العماية واللجاجة والجمود على العادات والعقائد الضالة ، هو الذي يحملهم على محاربتهم ، ونصب الكيد له ، والتأمر على قتله إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

٥- إن تفكير قائد الدعوة أو رئيس الدولة ، أو زعيم حركة الإصلاح في النجاة من تأمر المتربصين والمغتالين ، وعمله لنجاح خطة النجاة ليستأنف حركته أشد قوة ومراساً في ميدان آخر ، لا يعتبر جبناً ولا فراراً من الموت ، ولا ضناً بالتضحية بالنفس والروح .

٦- في موقف عبد الله بن أبي بكر ما يثبت أثر الشباب في نجاح الدعوات ، فهم عماد كل دعوة إصلاحية ، وباندفاعهم للتضحية والفداء تتقدم الدعوات سريعاً نحو النصر والغلبة ، ونحن نرى في المؤمنين السابقين إلى الاسلام كلهم شباباً ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمره أربعين سنة عند البعثة ، وأبو بكر رضي الله عنه كان أصغر منه بثلاث سنين ، وعمر رضي الله عنه أصغر منهما ، وعلي رضي الله عنه أصغر الجميع ، وعثمان رضي الله عنه كان أصغر من رسول الله صلى الله وسلم ، وهكذا كان عبدالله بن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، والأرقم بن أبي الأرقم وسعيد بن زيد ، و بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر ، رضي الله عنهم ، وغيرهم ، كل هؤلاء كانوا شباباً حملوا أعباء الدعوة على كواهلهم ، فتحملوا في سبيلها التضحيات ، واستعدبوا من أجلها العذاب والألم والموت ، بهؤلاء انتصر الإسلام ، وعلى جهودهم وجهود إخوانهم قامت دولة الخلفاء الراشدين ، وتمت الفتوحات الإسلامية رائعة ، وبفضلهم وصل إلينا الإسلام الذي حررنا الله به من الجهالة والضلالة والوثنية والكفر والفسوق .

٦- وفي موقف عائشة وأسماء رضي الله عنهما أثناء هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ما يثبت حاجة الدعوات الإصلاحية إلى النساء ، فهن أرق عاطفة ، وأكثر أندفاعاً ، واسمح نفساً ، وأطيب قلباً ، والمرأة إذا أمنت بشيء لم تبال في نشره والدعوة إليه بكل صعوبة ، وعملت على إقناع زوجها وإخوتها وأبنائها به ، ولجهد المرأة في سبيل الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم صفحات بيضاء مشرقة ، تؤكد لنا اليوم أن حركة الإصلاح الإسلامي ستظل وئيدة الخطأ ، قليلة الأثر في المجتمع حتى تشترك فيها المرأة ، فتنشئ جيلاً من الفتيات على الإيمان والخلق والعفة والطهارة ، هؤلاء أقدر على نشر هذه القيم التي يحتاج إليها مجتمعنا اليوم في أوساط النساء من الرجال ، عدا أنهم سيكون زوجات وأمهات ، وأن الفضل الكبير في تربية صغار الصحابة ثم التابعين من بعدهم يعود إلى نساء الاسلام اللاتي أنشأن هذه الاجيال على أخلاق الاسلام وآدابه ، وحب الاسلام ورسوله ، فكانت أكرم الاجيال التي عرفها التاريخ في علو الهمة ، واستقامة السيرة ، وصلاح الدين والدنيا .

إن علينا اليوم أن ندرك هذه الحقيقة ، فنعمل على أن تحمل الفتيات والزوجات لواء دعوة الإصلاح الإسلامي في أوساط النساء ، وهن أكثر من نصف الأمة وذلك يقتضينا أن نشجع بناتنا على تعلم الشريعة في معهد موثوق بحسن تدريسه للإسلام ، مثل كلية الشريعة في جامعتنا ، وكلما كثر عدد هؤلاء الفتيات العالمات بالدين ، الفقيهات في الشرعية ، الملمات بتاريخ الإسلام ، المحبات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، المتخلقات بأخلاقه وأخلاق أمهات المؤمنين ، استطعنا أن ندفع عجلة الإصلاح الإسلامي إلى الإمام دفعا قويا ، وأن نقرب اليوم الذي يخضع فيه مجتمعنا الإسلامي لأحكام الإسلام وشريعته ، وإن ذلك لواقع إن شاء الله .

٧- وفي عمى أبصار المشركين عن رؤية رسول الله وصاحبه في « غار ثور » وهم عنده ، مثل تخشع القلوب من أمثلة العناية الإلهية برسله ودعاته وأحبابه ، فما كان الله في رحمته لعباده ليسمح أن يقع الرسول صلى الله عليه وسلم في قبضة المشركين فيقضوا عليه وعلى دعوته وهو الذي أرسله رحمة للعالمين ، وكذلك يعود الله عبادة الدعاة المخلصين أن يلطف بهم في ساعات الشدة ، وينفذهم من المأزق الحرجة ، ويعمي عنهم - في كثير من الأحيان - أبصار المتربصين لهم بالشر والغدر ، وليس في نجاة الرسول وصاحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في « غار ثور » إلا تصديق قول الله تبارك وتعالى : **« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ »** [غافر : ٥١] وقول الله تبارك وتعالى : **(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)** [الحج : ٣٨] .

٨- وفي خوف أبي بكر وهو في الغار من أن يراهما المشركون مثل لما ينبغي أن يكون عليه جندي الدعوة الصادق مع قائدة الأميين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته ، فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه من الموت ، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول صلى الله عليه وسلم في قبضة المشركين .

٩- وفي جواب الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر تطمئناً له على قلعه « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » مثل من أمثلة الصدق في الثقة بالله والاطمئنان إلى نصره ، والإتكال عليه عند الشدائد ، وهو دليل واضح على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة النبوة ، فهو في أشد المأزق حرجاً ، ومع ذلك تبدو عليه امارات الاطمئنان إلى أن الله بعثه هدى ورحمة للناس لن يتخلى عنه في تلك الساعات ، فهل ترى مثل هذا الاطمئنان يصدر عن مدع للنبوة منتحل صفة الرسالة ؟ وفي مثل هذه الحالات يبدو الفرق واضحاً بين دعاة الإصلاح وبين المدعين له والمنتحلين لاسمه ، وأولئك تبيض قلوبهم دائماً وأبداً بالرضي عن الله ، والثقة بنصره ، وهؤلاء يتهاوون عند المخاوف ، وينهارون عند الشدائد ، ثم لا تجد لهم من الله ولياً ولا نصيراً .

١٠- ويبدو لنا في موقف سراقاة حين أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وعجزه عن الوصول إليه دليل على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت قوائم فرسه تسيخ في الرمل وهي متجهة صوب الرسول ، حتى إذا نزل عنها ووجهها شطر مكة نشطت من كيوتها ، فإذا أراد أن يعيدها كرة في اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم عادت إلى عجزها وكعها ، فترى هذا يقع إلا لنبي مرسل مؤيد من الله النصر والعون ؟ كلا ، وهذا ما أدركه سراقاة ، فنادى الرسول بالأمان ، وأدرك أن للرسول صلى الله عليه وسلم من العناية الإلهية ما تعجز عن ادراكه قوى البشر ، فرضى أن يخسر الجائزة ويفوز بالوعد .

١١- وفي وعد الرسول صلى الله عليه وسلم لسراقاة بسواري كسرى معجزة أخرى ، فالأنسان الذي يبدو هارياً من وجه قومه لا يؤمل في فتح الفرس والاستيلاء على كنوز كسرى ، إلا أنه يكون نبياً مرسلًا ، ولقد تحقق وعد الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وطلب سراقاة عمر بن الخطاب بإنفاذ وعد الرسول صلى الله عليه وسلم له حين رأى سواري كسرى في الغنائم ، فألبسهما عمر سراقاة على ملاء من الصحابة ، وقال : الحمد لله الذي سلب كسرى سواريه ، وألبسهما سراقاة بن جعشم الأعرابي . هكذا تتوالى المعجزات في هذه الهجرة واحدة بعد أخرى ليزداد المؤمنون ويستيقن الذين أوتوا الكتاب من المترددين والجاحدين أنه رسول من رب العالمين .

١٢- كانت فرحة المؤمنين من أنصار ومهاجرين بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصوله اليهم سالماً فرحة أخرجت النساء من بيوتهن والولائد ، وحملت الرجال على ترك أعمالهم ، وكان موقف يهود المدينة موقف المشاركة لسكانها في الفرحة ظاهراً ، والمتآلم من منافسة الزعامة الجديدة باطنياً ، أما فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم ، فلا عجب فيها ، وهو الذي أنقذهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد ، وأما موقف اليهود ، فلا غرابة فيه ، وهو الذي عرفوا بالملق والنفاق للجميع الذي فقدوا السيطرة عليه وبالغيط والحقد الأسود ممن يسلبهم زعامتهم ، ويحول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض وسفك الدماء باسم النصح والمشورة ، وما زال اليهود يحقدون على كل من يخلص الشعوب من سيطرتهم ، وينتهون من الحقد إلى درس المؤامرات ، ثم إلى الاغتيال إن استطاعوا ، ذلك ديدنهم، وتلك جبلتهم ، ولقد فعلوا مثل ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استقراره بالمدينة ، برغم ما أمضاه بينه وبينهم من ميثاق على التعاون والتعايش بسلام ، ولكن اليهود قوم يشعلون نار الحروب دائماً وأبداً ، (كَلِّمًا أَوْ قَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ) . [المائدة : ٦٤] .

١٣- من وقائع الهجرة إلى المدينة لنا أنه صلى الله عليه وسلم ما أقام بمكان إلا كان أول ما يفعله بناء يجتمع فيه المؤمنون فقد أقام مسجد قباء حين أقام فيها أربعة أيام ، وبني مسجداً في منتصف الطريق بين قباء والمدينة لما أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي « وادي رانواناء » .

فلما أن وصل على المدينة ، كان أول عمل عمله بناء مسجد فيها ، وهذا يدلنا على أهمية المسجد في الإسلام ، وعبادات الإسلام كلها تطهير للنفس وتزكية للأخلاق ، وتقوية لأواصر التعاون بين المسلمين ، وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، مظهر قوي من مظاهر اجتماع المسلمين ، ووحدتهم ، وأهدافهم ، وتعاونهم على البر والتقوى ، لاجرم أن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحانية عظيمة الشأن في حياة المسلمين ، فهو الذي يوحد صفوفهم ، ويهذب نفوسهم ، ويوقظ قلوبهم وعقولهم ، ويحل مشاكلهم ، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم .

ولقد أثبت تاريخ المسجد في الإسلام أن منه انطلقت جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله ، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم ، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت ، وهل كان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وخالد ، وسعد ، وأبو عبيدة ، وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة المحمدية التي كان مقرها المسجد النبوي .

وميزة أخرى للمسجد في الإسلام أنه تنبعث منه في كل أسبوع كلمة الحق مدوية مجلجة على لسان خطيبه ، في إنكار منكر أو أمر بمعروف . أو دعوة إلى خير ، أو إيقاظ من غفلة ، أو دعوة إلى جميع ، أو احتجاج على ظالم ، أو تحذير لطاغية ، ولقد شاهدنا في عهد الطفولة كيف كانت المساجد مراكز الانطلاق للحركة الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين ، يلجأ إليها زعماء الجهاد ضد الاستعمار وضد الصهيونية ، وإذا كنا نرى تعطيلها اليوم عن قيامها بوظيفتها الكبرى ، فما ذلك إلا ذنب بعض الخطباء من الموظفين المرتزقين ، أو الجاهلین الغافلين ، ويوم يعتلي منابرها ويؤم محاربيها دعاة اشداء في الحق ، علماء بالشريعة ، مخلصون لله ولرسوله ، ناصحون لأئمة المسلمين وعامتهم ، يعود للمسجد في مجتمعنا الإسلامي مكان الصدارة في مؤسساتنا الاجتماعية ، ويعود المسجد ليعمل عمله في تربية الرجال ، وإخراج الأبطال ، وإصلاح الفساد ، ومحاربة المنكر ، وبناء المجتمع على أساس من تقوى الله ورضوانه .

وإننا لنأمل ذلك أن شاء الله حين تحتل هذه الطليعة الطاهرة من شبابنا المؤمن المثقفة بدين الله المتخلقة بأخلاق رسول الله منابرهم وأرجاءه .

١٥- في مؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية الاخلاقية البناءة، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم ، فجاؤوا المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ، والانصار قوم أغنياء بزروعهم وأموالهم وصناعاتهم ، فليحمل الأخ أخاه ، وليقتسم معه سراء الحياة وضراءها ، ولينزله في بيته ما دام متنسح لهما ، وليعطه نصف مالهما دام غنياً عنه ، موفراً له ، فأية عدالة اجتماعية في الدنيا تعدل هذه الأخوة ؟

إن الذين ينكرون أن يكون في الإسلام عدالة اجتماعية ، قوم لا يريدون أن يبهر نور الإسلام أبصار الناس ويستولي على قلوبهم ، أو قوم جامدون يكرهون كل لفظ جديد ولو أحبه الناس وكان في الإسلام مدلوله ، وإلا فكيف تنكر العدالة الاجتماعية في الإسلام وفي تاريخه هذه المؤاخاة الفذة في التاريخ ، وهي التي عقدها صاحب الشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وطبقها باشرافه ، وأقام على أساسها أول مجتمع ينشؤه ، وأول دولة يبنيتها

سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .

١٦- وفي الكتاب الذي عقد فيه الرسول الاخوة بين المهاجرين والأنصار ، والتعاون بين المسلمين وغيرهم جملة من الأدلة التي لا ترد على أن أساس الدولة الإسلامية قائم على العدالة الاجتماعية ، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم هو السلم ماسالموا ، وان مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس ، ودفع أذى الأشرار عن المجتمع ، هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام ، وبذلك تكون الدولة الإسلامية أينما قامت ، وفي أي عصر نشأت قائمة على أقوم المبادئ واعدلها ، وهي تنطبق اليوم على أكرم المبادئ التي تقوم عليها الدول ، وتعيش في ظلها الشعوب ، وإن العمل في عصرنا هذا لاقامة دول في مجتمعنا الاسلامي تركز قواعدها على مبادئ الاسلام عمل يتفق مع تطور الفكر الانساني في مفهوم الدولة عدا أنه يحقق للمسلمين بناء مجتمع من أقوى المجتمعات وأكملها وأسعدنا وأرقاها .

وأياً ما كان فإن من مصلحتنا أن تبني الدولة عندنا على أساس الاسلام ، وفي ترك ذلك خراجنا ودمانا، والاسلام لا يؤدي غير المسلمين في الوطن الاسلامي ، ولا يضطهد عقائدهم ، ولا ينتقص من حقوقهم ، ففيم الخوف من إلزام الدول في البلاد الاسلامية بتنفيذ شرائع الاسلام وإقامة أحكامه وهي كلها عدل وحق وقوة وإخاء وتكفل اجتماعي شامل على أساس من الإخاء والحب والتعاون الكريم ؟ إننا لن نخلص من الاستعمار ، إلا بالمنادة بالاسلام ، وفي سبيل ذلك فليعمل العاملون (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) [الأعراف : ٩٦] (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [الانعام : ١٥٣] (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) [الطلاق : ٢] (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) [الطلاق : ٤] (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) [الطلاق : ٥] .

صحيح البخاري ج ٣ ص ١٤٢٠

وصايا الرسول في الغزوات _ الوصية الاولى

في معارك الرسول الحربية

آ - الوقائع التاريخية

ما كان يستقر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة حتى بدأت المعارك الحربية بينه وبين قريش ومن الأهمان قبائل العرب ، وقد اصطلح المؤرخون المسلمون على أن يسموا كل معركة بين المسلمين والمشركين وخصوصها النبي بنفسه « غزوة » وبلغت عدد سرايا ثمانية وثلاثين سرية ، ونقتصر في هذا العجالة على أشهر غزواته ، وهي احدى عشرة غزوة .

١- غزوة بدر الكبرى ، وكانت في اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، وسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب يريد قتالاً ، ولكن القافلة التي كان يقودها أبو سفيان قد نجت بعد أن كان أرسل إلى قريش يستنفرها لحماية القافلة ، فخرجت قريش في نحو من ألف مقاتل ، منهم ستمائة دارع (لايس للدرع) ومائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة وسبعمائة بعير ، ومعهم القيان يضرين بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين .

أما المسلمون ، فكانت عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً ، أكثرهم من الأنصار ، وكان معهم سبعون جملًا ، فرسان أو ثلاثة أفراس فحسب ، وكان يتعاقب النفر اليسير على الجمل الواحد فترة بعد أخرى ، وقبل أن يخوض المعركة ، أراد أن يستشير أصحابه ، وخاصة الأنصار ، في خوض المعركة ، فأشار عليه المهاجرون بخوضها ، وتكلموا خيراً ، ثم علم الأنصار أنه يريدهم ، فقال له سعد بن معاذ وهو سيد الأنصار جميعاً : يا رسول الله قد أمانا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله ما أردت ، فنحن معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، ما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً ، وإنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . وقال غيره مثل ذلك فسّر الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك ، وقال : سيروا على بركة الله ، وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ، إما العير ، وإما النفير ،

ثم سار الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وصل أدنى ماء من بدر فنزل به ، فقال الحباب بن المنذر : يا رسول الله هذا منزل أنزلكه الله تعالى : لا تقدمه ، ولا تتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يسير إلى مكان آخر هو أصلح وأمكن للمسلمين من قطع ماء بدر عن المشركين ، فنهض الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى وصلوا إلى المكان ، الذي أشار به الحباب ، فأقاموا فيه ، ثم أشار سعد بن معاذ أن يبني للرسول صلى الله عليه وسلم عريشاً وراء صفوف المسلمين ، فإن أعزهم الله كان ما أحب ، وإلا جلس على ركائبه ولحق بمن في المدينة ، وقال له سعد : فقد تخلف عنا أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أن تلقى حرباً لما تخلفوا عنك ، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمر أن يبني له العريش ولما التقى الجمعان ، أخذ الرسول يسوي صفوف المسلمين ، ويحرضهم على القتال ، ويرغبهم في الشهادة ، وقال : « والذي نفسي بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » ورجع إلى عريشه ومعهم أبو بكر ، ويحرسه سعد بن معاذ متوحشاً بسيفه ، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعاء ومن دعائه : اللهم أنشد عهدك ووعدك اللهم إن تهلك هذه العصابة (المؤمنون المحاربون) لا تعبد في الأرض « وأطال في سجوده ، حتى قال له أبو بكر : حسبك ، فإن الله سينجز لك وعدك ، ثم حمى القتال ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ، وقد قتل من المشركين نحو من السبعين ، فيهم أشركهم أبو جهل وبعض زعمائهم ، وأسر منهم السبعين ، ثم أمر بدفن القتلى جميعاً ، وعاد إلى المدينة ، ثم استشار أصحابه في أمر الأسرى ، فأشار عليه عمر بقتلهم ، وأشار عليه أبو بكر بفدائهم ، فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم مشورة أبي بكر ، وافتدى المشركون أسراهم بالمال .

وقد نزل في معركة بدر آيات من كتاب الله الكريم ، قال الله تعالى في سورة آل عمران « (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ) [آل عمران : ١٢٣-١٢٧] . كما نزل العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم على قبوله فداء الأسرى ، فقال الله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَبْخُنَ فِي الْأَرْضِ ، تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [الانفال : ٦٧-٦٨] .

٢ - غزوة أحد :

وكانت يوم السبت لخمس عشرة خلت من شوال في العالم الثالث للهجرة ، وسببها أن قريشاً أرادت أن تثار ليوم بدر ، فما زالت تستعد حتى تجهزت لغزو الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل ، ما عدا الأحابيش فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس ، ومعهم سبع عشر امرأة ، فيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وقد قتل أبوها يوم بدر ، ثم ساروا حتى وصلوا بطن الوادي (وهو جبل مرتفع يقع شمال المدينة على بعد ميلين منها) ، مقابل المدينة ، وكان من رأي الرسول وعدد من الصحابة أن لا يخرج المسلمون إليهم ، بل يظلمون في المدينة ، فإن هاجمهم المشركون صدوهم عنها ، ولكن بعض شباب المسلمين وبعض المهاجرين والأنصار ، وخاصة من لم يحضر منهم معركة بدر ولم يحصل له شرف القتال فيها ، تحمسوا للخروج إليهم ومنازلتهم في أماكنهم ، فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، ودخل بيته ولبس لأمته (درعة) ، وألقى الترس في ظهره ، وأخذ قناته بيده ، ثم خرج إلى المسلمين ، وهو متقلد سيفه ، فندم الذي أشاروا عليه بالخروج إذا كانوا سبباً في حملة على خلاف رأيه ، وقالوا للرسول : ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت أو أقعد إن شئت ، فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما كان ينبغي لنبي إذا لبي لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » ، ثم خرج والمسلمون معه في نحو ألف بينهم مائة دارع وفرسان .

ولما تجمع المسلمون للخروج ، رأى الرسول جماعة من اليهود يريدون ان يخرجوا مع عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين للخروج مع المسلمين ، فقال الرسول : « أوقد أسلموا ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « مروهم فليرجعوا فانا لا نستعين بالمشركين على المشركين » ، وفي منتصف الطريق أنخذل عن المسلمين عبد الله بن أبي سلول ومعه ثلاثمائة من المنافقين ، فبقي عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب ، ثم مضى الرسول وصف الجيش وجعل على كل فرقة منه قائداً ، واختار خمسين من الرماة ، على رأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري ليحموا ظهر المسلمين من النخاف المشركين وراءهم ، وقال لهم « أحموا ظهورنا ، لا يأتونا من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقوى على النبل ، إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ، اللهم إني أشهدك عليهم » وقال لهم في رواية أخرى : « إن رأيتمونا تخططنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهروناهم وهم قتلى ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم » .

ثم ابتداء القتال ، ونصر الله المسلمين على أعدائهم ، فقتلوا منهم عدداً ، ثم ولوا الادبار ، فانغمس المسلمون في أخذ الغنائم التي وجدوها في معسكر المشركين ، ورأى ذلك من وراءهم من الرماة فقالوا : ماذا نفعل وقد نصر الله رسوله ؟ ثم فكروا في ترك أمكنتهم لينالهم نصيب من الغنائم ، فذكرهم رئيسهم عبد الله بن حبيب بوصية الرسول ، فأجابوا بأن الحرب أنتهت ، ولا حاجة للبقاء حيث هم ، فأبى عبدالله ومعه عشر آخرون أن يغادروا أماكنهم ، ورأى خالد بن الوليد وكان قائد ميمنة المشركين خلو ظهر المسلمين من الرماة ، فكر عليهم من خلفهم ، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك ، فاضطرب حبلهم ، وأشيع أن الرسول قد قتل ، ففر بعضهم عائداً على المدينة ، واستطاع المشركين أن يصلوا إلى الرسول ، فأصابته حجارتهم حتى وقع وأغمى عليه ، فشجع وجهه وخذشت ركبته ، وجرحت شفته السفلى ، وكسرت الخوذة على رأسه ، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجهته ، وتكاثر المشركون على الرسول يريدون قتله ، فثبت صلى الله عليه وسلم ، وثبت معه نفر من المؤمنين ، منهم : أبو دجانة ، تنرس على الرسول ليحميه من نبال المشركين ، فكان النبل يقع على ظهره ، ومنهم سعد بن أبي وقاص ، رمى يومئذ نحو ألف سهم ، ومنهم : نسيبة أم عمارة الأنصارية ، تركت سقاء الجرحى ، وأخذت تقاتل بالسيف ، وترمي بالنبل ، دفاعاً عن رسول الله حتى أصابها في عنقها ، فجرحت جرحاً عميقاً ، وكان معها زوجها وابناها ، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم أهل البيت ، فقالت له نسيبة : ادع الله أن يرافقك في الجنة ، فقال « اللهم أجعلهم رفقائي في الجنة ، فقالت رضي الله عنها بعد ذلك : ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في حقها : « ما التفت يمينا وشمالاً يوم أحد ، إلا ورأيتها تقاتل دوني » وقد جرحت يومئذ أتني عشر جرحاً ، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف .

وقد حاول في ساعة الشدة أن يصل أبي بن خلف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليقتله ، وأقسم أن لا يرجع عن ذلك ، فأخذ عليه السلام حربة ممن كانوا معه ، فسدها في نحره ، فكانت سبب هلاكه ، وهو الوحيد الذي قتله صلى الله عليه وسلم في جميع معاركه الحربية ثم استطاع صلى الله عليه وسلم الوقوف والنهوض على أكتاف طلحة بن عبيد الله ، فنظر إلى المشركين ، فرأى جماعة منهم على ظهر الجبل ، فأرسل من ينزلهم قائلاً : « لا ينبغي لهم أن يعلونا ، اللهم لا قوة لنا إلا بك » وأنتهت المعركة . وقال أبو سفيان مظهراً تشفيه والمشركين من هزيمتهم يوم بدر : يوم بيوم بدر .

وممن قتل في هذه المعركة حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثلت به هند زوج أبي سفيان ، واحتزت قلبه ومضغته ، فرأت له مرارة فلفظته ، وقد حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لمشهده حزناً عظيماً فقال : لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ، ولكن الله نهي عن المثلة بعد ذلك . وقد بلغ عدد قتلى المسلمين في هذه المعركة نحواً من السبعين ، وقتلى المشركين ثلاثة وعشرين .

وقد أنزل الله تعالى في هذه المعركة عدة آيات يضمدها جراح المؤمنين ، وينبههم إلى سبب الهزيمة التي حلت بهم ، فيقول في سورة آل عمران : « (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ) [آل عمران : ١٣٩-١٤٢] ثم يقول بعد آيات : (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ (تقتلونهم) بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ تَضَعُونَ (أي تهربون إلى الجبل صاعدين) وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَعْدٍ ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَعِمُمْ (أي فجازاكم عما على غم) لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [آل عمران : ١٥٢ - ١٣] .

٣-غزوة بني النضير :

وهم قوم من اليهود يجاورون المدينة ، وكانوا حلفاء للخروج وبينهم وبين المسلمين عهد سلم وتعاون كما قدمنا ، ولكن طبيعة الشر والغدر المتأصلة في اليهود أبت إلا أن تحملهم على نقض عهدهم ، فبينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في بني النضير وقد أستند إلى جدار من بيوتهم ، إذا تأمروا على قتله بالقاء صخرة من ظهر البيت ، فعلم صلى الله عليه وسلم بذلك فنهض سريعا كأنه يهجم بحاجة ، فتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه ثم أرسل اليهم محمد بن مسلمة أن أخرجوا من بلدي فلا تساكفوني بها ، وقد هممت بما هممت به من الغدر ، ثم أمهلهم صلى الله عليه وسلم عشر أيام للخروج ، وتجهز بنو النضير للخروج في هذا الانذار ، ولكن عبد الله بن أبي رأس المنافقين أرسل اليهم ينهاهم عن الخروج ، و يعدهم بإرسال الفين من جماعته يدافعون عنهم ، فعدلوا عن النزوح ، وتحصنوا في حصونهم وأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم في أصحابه يحمل لواءه علي بن أبي طالب ، فلما رآهم اليهود أخذوا يرمونهم بالنبل والحجارة ، ولم يصل إليهم المدد الذي وعدهم به رأس المنافقين ، فحاصرهم عليه الصلاة والسلام ، فصبروا فاضطر إلى قطع نخيلهم ، فقالوا عندئذ : نخرج من بلادك ، واشترط عليهم صلى الله عليه وسلم أن لا يخرجوا معهم السلاح ، ولهم أن يخرجوا معهم من أموالهم ما حملته الأبل ، ودمأوهم مصونة لا يسفك منها قطرة ، فلما أرادوا الخروج أخذوا كل شيء يستطيعونه ، وهدموا بيوتهم لكي لا يستفيد منها المسلمون ، وسارعوا ، فمنهم من نزل خيبر على بعد مائة ميل من المدينة ، ومنهم من نزل في ناحية « جرش » بجنوب الشام ، ولم يسلم منهم إلا أثنان .

وقد نزلت في هذه الغزوة سورة (الحشر) ومنها قول الله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ، وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [الحشر : ٤-٤] .

٤- غزوة الأحزاب :

وتسمى غزوة (الخندق) ، وقد وقعت في شوال من السنة الخامسة للهجرة ، وسببها أنه لما تم إجلاء بني النضير ، قدم عدد من رؤسائهم إلى مكة يدعون قريشا ويحرضونها على قتال الرسول ، فأجابت قريش لذلك ، ثم ذهب رؤساء اليهود إلى غطفان ، فاستجابت لهم بنو فزارة وبنو مرة ، وأشجع واتجهوا نحو المدينة ، فلما سمع صلى الله عليه وسلم بخروجهم ، استشار أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر خندق حول المدينة، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بحفره وعمل فيه بنفسه ، ولما وصلت قريش ومن معها من الأحزاب راعها ما رأت من أمر الخندق ، إذ لا عهد للعرب بمثله ، وكانت عدتهم عشر آلاف ، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف ، وكان حيي بن أخطب أحد اليهود الذين هيجوا قريشاً والأحزاب ضد المسلمين ، قد ذهب الى كعب بن أسيد سيد بني قريظة يطلب إليه نقض عهد السلم بينه وبين المسلمين ، وفكر النبي في مصالحه بني قريظة على ثلث ثمار المدينة ، ولكن الأنصار رفضوا اعتزازاً بدينهم من أن يعطوا الدنيا لهؤلاء الخائنين للعهود والمواثيق ، وبدأ القتال بافتتاح بعض فرسان المشركين للخندق من إحدى نواحيه الضيقة ، فناوشهم المسلمون وقتلوهم ، ثم جاء نعيم بن مسعود بن عامل إلى الرسول ، فأخبره أنه قد أسلم ، وأن قومه لا يعلمون بإسلامه ، وأنه صدق لنبي قريظة يأتمنونه ويقون به ، وقال للرسول : مرني بما شئت ، فقال له الرسول : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة : فاستعمل نعيم دهاءه حتى فرق بين قريش وحلفائها ، وبين بني قريظة ، وأوقع في نفوس كل من الفريقين الشك في الآخر ، وأرسل الله على الأحزاب ريحاً شديدة في ليلة شاتية شديدة ، فجعلت تكفى قلوبهم وتمزق خيامهم . فامتلات نفوس الأحزاب بالرعب ورحلوا في تلك الليلة ، فلما أصبح الصباح نظر المسلمون فلم يروا أحداً .

وفي هذه الغزوة أنزل الله تعالى في كتابه الكريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ، إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا) [الأحزاب : ٩-١١] ، ثم يصف موقف المنافقين وتخذيلاً وانسحابهم من المعركة ، ثم يقول في وصف المؤمنين : (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْبِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا) . [الأحزاب : ٢٢ - ٢٥] .

٥- غزوة بني قريظة :

وقد وقعت في السنة الخامسة بعد أن رأى ما أنطوت عليه نفوس يهود بني قريظة من اللوم والغدر والتحزب مع قريش وحلفائها ، وبعد أن أعلنت له إبان اشتداد معركة الأحزاب أنها فضت عهدها معه ، وكانت وهي تساكُن الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة تهم بشر عظيم قد يقضي على المسلمين جميعاً لولا انتهاء معركة الأحزاب بمثل ما انتهت إليه ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدب هؤلاء الخائنين الغادرين ، ويظهر منهم المدينة مقر جهاده ودعوته حتى لا تواتيهم الظروف مرة أخرى ، فينقضوا على جيران المسلمين ، ويبيدوهم كما هي طبيعة الغدر اليهودي اللئيم .

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال : وضعت السلاح ، فوالله ما وضعت ، قال : فأين ؟ قال : ها هنا ، وأوماً إلى بني قريظة ، قالت : فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من ينادي في الناس بأن لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ، ثم خرج فيهم وقد حمل رايته علي رضي الله عنه ، وقد اجتمع من المسلمين ثلاثة آلاف ، ومن الخيل ست وثلاثون فلما دنا علي من حصن بني قريظة ، سمع منهم مقالة قبيحة في حقه صلى الله عليه وسلم وحق أزواجه ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب إليه أن لا يدنو من أولئك الأخبث ، فأجابه عليه السلام بأنهم إذا ، رأوه لم يقولوا من ذلك شيئاً لما يعلم من أخلاقهم في النفاق والملك ، فلما رأوه تطفوا به كما تنبأ صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ المسلمون في حصارهم خمسا وعشرين ليلة ، فلما ضاق بهم الأمر ، نزلوا على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس ، فحكم سعد بأن تقتل مقاتلهم ، وأن تسبى ذراريهم ، وأن تقسم أموالهم ، فنفذ الرسول حكمه ، وبذلك قضى على مؤامرات اليهود ودسائسهم وتآمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته قضاءً مبرماً في المدينة وما حولها .

وفي هذه الغزوة نزلت آيات من القرآن الكريم تبين غدر اليهود ، ونقضهم للعهد ، وتخذيلهم لصفوف المسلمين في غزوة الأحزاب : (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ ، يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ، وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ، ثُمَّ سُلِّوا ، لِأَتَوْهَا ، وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا ، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ (إشارة إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم معهم يوم أُسْتُقِرَّ بِالْمَدِينَةِ) لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ، قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) [الأحزاب : ١٣ - ١٦] إلى قوله : (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ (أهل الأحزاب) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ (حصونهم) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ، وَتَأْسُرُونَ فَرِيقًا ، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَأَرْضًا لَمْ تَطْنُوهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) [الأحزاب : ٢٦ - ٢٧] .

٦- غزوة الحديبية :

وقعت في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، وكان من أمرها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامة أنه دخل البيت هو وصحابته آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون شيئاً ، فأمر الناس أن يجهزوا للخروج إلى مكة معتمرين ، لا يريد حرباً لقريش ولا قتالاً ، فخرج معه المهاجرون والأنصار يحدوهم الشوق إلى رؤية بيت الله الحرام بعد أن حرموا من ذلك ست سنوات ، وخرج معهم من شاء من الأعراب ، وساق أمامه صلى الله عليه وسلم وهو ما يساق إلى البيت الحرام من الإبل والنعم تعظيماً للبيت وتكريماً ، وأحرم بالعمرة في مكان يسمى بذي الحليفة ، ليعلم الناس وقريش خاصة أنه لا يريد قتالاً ، وكان عدد من خرج معه نحواً من ألف وخمسائة ، ولم يخرجوا معهم سلاح إلا سلاح المسافرين في تلك العهود : السيوف في أعمادها ، وسار حتى إذا وصل إلى « عسفان » جاء من يقول له : هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ! ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني ، كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرقت ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة » .

فلما وصل إلى الحديبية - وهي مكان قريب من مكة بينها وبين طريق جدة الآن - ، جاءه بعض رجال من خزاعة يسألون عن سبب قدومه ، فأخبرهم أنه لم يأت إلا ليزور البيت ويعتمر ، فرجعوا وقالوا لهم : إنكم تعجلون على محمد ، لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً ، لهذا البيت ، فقالوا : لا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا يتحدث العرب عنا بذلك . ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي ليتحدث إلى الرسول بهذا الشأن ، وبعد حديث وأخذ ورد بين عروة وبعض الصحابة ، عاد إلى قريش وحدثهم عما رأى من حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهيبتهم له ، ورغبتهم في الصلح معه ، فأبوا ذلك ، ثم بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليؤكد لهم الغرض من مجيء الرسول وصحابته ، وأبطأ عثمان ، فأشيع بين المسلمين أنه قد قتل ، فقال الرسول عندئذ : لا نبرح حتى نناجز القوم (نقاتلهم) ودعا المسلمين إلى البيعة على الجهاد والشهادة في سبيل الله ، فبايعوه تحت شجرة هناك من أشجار الطلح على عدم الفرار ، وأنه إما الصلح معه على أن يرجع في هذا العام ويعود من قبل فيقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب : الرماح والسيوف في أعمادها ، وأرسلت قريش لذلك سهيل بن عمرو ليتم هذا الصلح ، وأخيراً تم الصلح ، على ما رغبت قريش ، وعلى وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين ، وأن من أتى من عند محمد إلى مكة لم يردوه ، وأن من أتى محمداً من مكة ردوه إليهم ،

فعر ذلك على المسلمين ، وأخذ بعضهم يجادل النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء من شروطها ، ومن أشدهم في ذلك عمر ، حتى قال رسول الله : « إني عبد الله ، ولن يضيعني ثم أمر الرسول أصحابه بالتحلل من العمرة فلم يفعلوا ذلك من موجة من الألم ، لما حيل بينهم وبين دخول مكة . ولما شق عليهم من شروط الصلح فبادر عليه السلام بنفسه ، فتحلل من العمرة ، فتبعه المسلمون جميعاً ، وقد ظهرت فيما فيها بعد فوائد هذه الشروط التي صعبت على المسلمين ورضي بها الرسول ، لبعده نظره ، ورجحان عقله ، وإمداد الوحي له بالسداد في الراي والعمل .

هذا وقد سمي الله هذه الغزوة فتحاً مبيناً ، حيث قال : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا) . [الفتح : ١-٣] ثم تحدث عن مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسُبُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا) [الفتح : ١٠] ورضي عن أصحاب بيعة الرضوان تحت الشجرة فقال : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) [الفتح : ١٨] وتحدث عن رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم التي كانت سببا في غزوة الحديبية ، فقال : « (لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) [الفتح : ٢٧] ولعل هذه إشارة إلى فتح مكة الذي كان ثمرة من ثمرات صلح الحديبية ، كما سنذكره في الدروس والعظات ان شاء الله ، ثم أتبع ذلك بتأكيد غلبة هذا الدين وأنصاره ، فقال : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) [الفتح : ٢٨] وصدق الله العظيم .

٧- غزوة خيبر :

وكانت في أواخر المحرم للسنة السابعة من الهجرة .

و « خيبر » واحة كبيرة يسكنها اليهود على مسافة مائة ميل من شمال المدينة جهة الشام

وسببها : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أمن جانب قريش بالصلح الذي تم في الحديبية ، قرر تصفية مشكلة التجمعات اليهودية فيما حول المدينة بعد أن صفى اليهود من المدينة نفسها ، وقد كان اليهود في خيبر حصون منيعة ، وكان فيها نحو من عشر آلاف مقاتل ، وعندهم مقادير كبيرة من السلاح والعتاد ، وكانوا أهل مكر وخبث وخداع ، فلا بد من تصفية مشكلتهم قبل أن يصبخوا مصدر اضطراب وقلق للمسلمين في عاصمتهم « المدينة » ولذلك أجمع الرسول صلى الله عليه وسلم على الخروج إليهم في أواخر المحرم ، فخرج إليهم في ألف وستمائ مقاتل ، منهم مائتا فارس ، واستنفر من حوله ممن شهد الحديبية ، وسار حتى إذا أشرف ، على خيبر قال لأصحابه : قفوا ، ثم عاد فقال : « اللهم رب السموت وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقلن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموها الله » .

ولما وصلوا إليها نزل النبي صلى الله عليه وسلم قريبا من أحد حصون خيبر يسمى « حسن النطاق » وقد جمعوا فيه مقاتلتهم ، فأشار حباب بن المنذر بالتحول ، لأنه يعرف أهل النطاق معرفة جيدة ، ليس قوم أبعد مدى ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون على مواقع المسلمين ، فالنبل منهم سريع الانحدار على صفوف المسلمين ، ثم إنهم قد يباغتون المسلمين في الليل متسترين بأشجار النخيل الكثيرة ، فتحول الرسول مع المسلمين إلى موضع آخر وابتدأت المعارك ، يفتح المسلمون منها حصنا بعد حصن ، إلا الحصنين الآخرين ، فقد رغب أهلها في الصلح على حقن دماء المقاتلة ، وترك الذرية ، ولا خروج من أرض خيبر بذراريهم ، وأن لا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً ، فصالحهم على ذلك ، وعلى أن ذمه الله ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئا ، ثم غادرهما ، فوجد المسلمون فيها أسلحة كثيرة ، وصفحات متعددة من التوراة ، فجاء اليهود بعد ذلك يطلبونها ، فأمر بردها إليهم ، وقد بلغ عدد قتلى اليهود في هذه المعركة ثلاثة وتسعين ، واستشهد من المسلمين خمسة عشر .

كانت في جمادي الأول للسنة الثامنة من الهجرة ، و « مؤتة » قرية على مشارف الشام ، تسمى الآن « بالكرك » جنوب شرق البحر الميت، وكان سببها أن الرسول كان قد أرسل الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير مصرى من جهة هرقل ، وهو الحارث بن ابي شمر الغساني يدعو فيه إلى الإسلام - وكان ذلك من جملة كتبه التي بعث بها عليه السلام إلى ملوك العالم وأمراء العرب بعد صلح الحديبية - فلما نزل مؤتة أحد الأمراء العرب الغساسنة التابعين لقيصر الروم ، فقال له : أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ، فأوثقه وضرب عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد عليه الألم إذ لم يقتل له رسول غيره ، وجهر لهم جيشاً من المسلمين عدته ثلاث آلاف . وأمر عليهم زيد بن حارثة ، وأوصاهم ، إن أصيب زيد ليؤمروا جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب ، فليؤمروا عليه عبد الله بن رواحة ، وطلب من زيد أن يأتي بقاتل الحارث بن عمير ، وأن يدعو من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا ، وإلا فليستعينوا بالله ، وليقاتلوهم ، وأوصاهم بقوله : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا (الغلول السرقة) ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منغزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناءاً »

ثم سار الجيش على بركة الله ، وقد شيعهم الرسول بنفسه ، ولم يزلوا سائرين حتى وصلوا معان ، فبلغهم أن هرقل قد جمع جمعاً عظيماً ، ونزل في ماب من أرض البلقاء (هي كورة من أعمال دمشق قصبتها عمان) وكان جيش الروم مؤلفاً منهم ومن العرب المنتصرة ، فتشاور المسلمون فيما بينهم ، ورأوا أن يطلبوا من الرسول مدداً ، أو يأمرهم بأمر آخر فيمضون له ، فقال عبد الله بن رواحة : والله إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له ، تطلبون الشهادة ، ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة ولا قوة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فإنما هي إحدى الحسينيين ، فإما الظفر ، وإما الشهادة ، فوافقهم الناس على خوف المعركة ، وابتداء القتال ، فقاتل زيد حتى قتل ، ثم أستلم اللواء بعده جعفر بن ابي طالب ، فقاتل على فرسه ، ثم أضطر للنزول عنها فقاتل مترجلاً ، فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضن اللواء حتى قتل ، ووجد فيه بضع وسبعون جرحاً ما بين ضربه بسيف وطعنة برمح ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة ، فقاتل حتى قتل ، ثم أتفق المسلمون على إمره خالد بن الوليد للجيش - وكانت هذه أول معركة يحضرها في الإسلام - فما زال يستعمل دهائه الحربي حتى انقذ الجيش الإسلامي من الفناء ، ثم عاد به إلى المدينة . كانت هذه أول معركة يخوضها المسلمون خارج جزيرة العرب ضد الروم ، وسميت بالغزوة وإن لم يحضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكثرة المحاربين فيها . حيث بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل .

وصايا الرسول في الغزوات_ الوصية الثانية

٩- غزوة الفتح :

وهي فتح مكة ، وكانت في رمضان للسنة الثامنة من الهجرة ، وسببها أن صلح الحديبية أباح لكل قبيلة عربية أن تدخل في عقد رسول الله إن شاءت ، أو تدخل في عقد قريش ، فارتضت بنو بكر أن تدخل في عقد قريش ، وارتضت خزاعة أن تدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي تلك السنة (الثامنة) اعتدت بنو بكر على خزاعة ، فقتلت منها نحو عشرين رجلاً ، وأمدت قريش بني بكر بالمال والسلاح فلما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم غضب غضباً شديداً ، وتجهز لقتال قريش إلا أنه لم يرد أن يخبر الناس عن وجهته لئلا تستعد قريش ، فتستباح حرمة البلد الحرام ، وتمتلئ أرجاؤه بأشلاء القتلى ، ولكن حاطب بن أبي بلتعة البديري أرسل كتاباً سرياً إلى مكة يخبرهم فيه بتوجيه الرسول إليهم ، فاطلع الله رسوله على أمر الكتاب ، فأرسل إلى المرأة التي تحمله بعض أصحابه ليفتشوها ، فعثروا على الكتاب فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم حاطباً ، فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، أما والله ، إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ، ولا بدلت ، ولكني كنت أمراً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة . وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم ، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر فقال : أعملوا ما شئتم فقد غفر لكم »

ثم سار الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة لعشر مضي من رمضان ، وفي الطريق أفطر ، وأفطر الناس معه لما لقوا من الجهد والمشقة في سفرهم ، وكان عددهم حين خروجهم من المدينة عشر آلاف ، ثم أنضم إليهم في الطريق عدد من قبائل العرب وفي « مر الظهران » عثر حرس رسول الله على أبي سفيان واثنين معه ، فاسروهم وجاؤوا بهم إلى رسول الله فأسلم أبو سفيان ، وقال العباس - الذي لقبه الرسول في الطريق مسلماً مهاجراً إلى المدينة - : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يفتخر به ، فقال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، ثم وصل الجيش مكة ، فاعلن منادي الرسول : من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن ، واستثنى من ذلك خمسة عشر رجلاً عظمت جريرتهم في حق الإسلام ورسوله ، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وهو راكب راحلته، منحن على الرجل ، حتى لتكاد جبهته تمس قتب الراحلة شكراً لله على هذا الفتح الأكبر ، ثم طاف الرسول بالبيت ، وأزال ما حولها من أصنام بلغت ثلاثمائة وستين ثم دخل الكعبة وصلى ركعتين فيها ، ثم وقف على بابها وقريش تنظر ما هو فاعل بها ، فقال فيها قاله ساعتئذ : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم . وابن أخ كريم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل « لا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) . [يوسف : ٩٢] . « أذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم اجتمع الناس حول الصفا ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فجلس الرسول على الصفا، وأخذ يبيعتهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، بايع الرجال أولاً ، ثم النساء ، ولم يصافح واحدة منهن ، وكان فيمن بايعهن هند زوجة أبي سفيان التي أهدر الرسول دمها فيمن أهدر يوم الفتح ، فلما علمها ، عفا عنها بيعتها وفي يوم الفتح أمر رسول الله بلالاً أن يؤذن لصلاة الظهر على ظهر الكعبة ، فاستعظم ذلك الحاضرون من قريش لم يسلموا بعد ، ولكن رسول الله أراد ذلك عمداً لسر عظيم وحكمة بالغة .

١٠ - غزوة حنين :

وكانت في العاشر من شوال للسنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة

وسببها أن الله لما فتح مكة لرسوله ظن زعماء هوازن وثقيف أن رسول الله سيتوجه إليهم بعد الانتهاء من أمر مكة ، فعزموا بالقتال ، فأمرهم عليهم مالك بن عوف وهو يومئذ ابن ثلاثين ، فأمرهم أن يسوقوا معهم إلى المعركة أموالهم ونساءهم وأبنائهم ليكون ذلك أدعى إلى ثباتهم في القتال ، وقد بلغت عدتهم في هذه المعركة المرتقبة ما بين عشرين ألفاً إلى ثلاثين ، وقد عزم رسول الله عزمه على الخروج لقتالهم . فخرج كل من كان بمكة ،

الذين قدموا معه في المعركة، ومن انضم اليهم بعد ذلك ممن اسلم حديثاً وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان في حنين خرجت عليهم هوازن وحلفاؤها في غيبش الصباح ، فحمل ، فانكمشوا وأنهزموا ، فاشغل المسلمون بجمع فاستقبلهم المشركون بالسهام فانفرط عقدهم ، وفر أهل مكة الجدد ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتاً على بغلته « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » ، وكان قد اشيع بين الناس ان النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فألقى كثير منهم سلاحه يائساً ، ولكن نفرأ من المهاجرين والأنصار ثبتوا حوله ، وأخذ العباس ، وكان جهوري الصوت - ينادي في المسلمين : إن رسول الله لا يزال حياً ، فعاد اليه من كان مدبراً ، وتكاثر المؤمنون حتى استطاعوا أن ينتصروا مره أخرى ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وبلغت غنائم العدو ومبلغاً كبيراً ، وقد فرق الرسول صلى الله عليه وسلم الغنائم على حديثي الاسلام من أهل مكة تأليفاً لقلوبهم ، ولم يعط منها الأنصار شيئاً اعتماداً على إيمانهم وصدق إسلامهم .

وقد نزل من القرآن في هذه المعركة : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) [التوبة : ٢٥] . وكانت هذه الغزوة آخر معركة ذات شأن بين الاسلام والمشركين . لم يلبث العرب بعدها أن كسروا الأصنام ، ودخلوا في دين الاسلام .

١١- غزوة تبوك :

وتسمى غزوة العسرة ، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة .

و (تبوك) موضع بين وادي القرى من أرض الحجاز وبين الشام ، وسببها أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ضمت قبائل لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان ، وهي من نصارى العرب وكان قصد هرقل من ذلك ، الهجوم على المدينة والقضاء على الدولة الناشئة في جزيرة العرب التي أخذت أخبارها وأخبار انتصاراتها تنير جزع هرقل وخوفه ، فندب رسول الله الناس للخروج ، وكان الوقت عسر شديد وحر شديد ، فانتدب المؤمنون الصادقون على طيب نفسي ، وتخلف ثلاثة منهم وهم من صادقي الإيمان ، وندب الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الاغنياء لتجهيز جيش العسرة فجاؤوا بأموال كثيرة ، جاء أبو بكر بماله كله ، وكان أربعين ألف درهم ، وجاء عمر بنصف ماله ، وتصدق عثمان يومئذ بمال كثيرة ، وجهز ثلث الجيش ، حتى دعا له الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم » . وجاءه عدد من فقراء الصحابة لا يجدون ما يركبون عليه ، فقال لهم الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أجد ما أحملكم عليه » ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ، وتخلف من المنافقين بضعة وثمانون رجلاً ، واعتذر اليه عدد من الأعراب بأعذار غير صحيحة فقبلها منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس ومعه ثلاثون ألف مقاتل ، ومن الخيل عشرة آلاف ، وكان هذا أعظم ما رآته العرب حتى ذلك ، ثم واصل سيره حتى بلغ تبوك فأقام فيها نحواً من عشرين ليلة ، ولم يلق فيها كيداً ، ولم يدخل حرباً .

وكانت هذه آخر غزواته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه الغزوة نزل قول الله تبارك وتعالى : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [التوبة : ١١٨ ، ١١٩] . كما أنزل آيات كثيرة تتحدث عن موقف المنافقين والمعذرين من الأعراب في هذه الغزوة ، وفيها عتاب من الله لرسوله على قبول معذرتهم ، وهي آيات كثيرة تجدها في سورة التوبة .

نتكلم أولاً عن مشروعية القتال في الإسلام وأسبابه وقواعده العامة .

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته بالحسنى والموعظة ، يتلو على قومه ما ينزل عليه من كتاب الله ويحدثهم من قبله وعقله ما يفتح عيونهم على ما هم عليه من وثنية وخرافة وضلالة وجهل ، ولكن قومه قابلوه بالصد والسخرية أولاً ، ثم بالافتراء والأذى ثانياً ، ثم بالتأمر على قتلها أخيراً ، إلى أن هيا الله لدعوته مكاناً تستقر فيه أمانة مطمئنة ، ولكنه واجه في مكانه الجديد قوتين على المدينة التي آمن أصحابها بدعوته أيضاً ، فغدت له قوة تتمزق لها مرائر قريش ، وقوة اليهود التي حرص النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقيم علاقة سلام ولكن طبيعة اليهود حاقدة مكررة متمرة في كاد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقر بالمدينة ، وتتم له زعامة المهاجرين والأنصار ، حتى شرق زعماء اليهود بالجسد والغيط من هذه الزعامة التي نافستهم وسيطرة على المدينة سيطرة تامة .

كان الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة مقامه بالمدينة تنتزل عليه آيات القرآن الكريم بالصبر على ما يقولون . (**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا**) [المزملة : ١٠] ، وكان المشركون كلما تنزلت آيات الصبر على أذاهم أزدادوا في الأذى والكيد والعداوان ، ولم يكن المسلمون يومئذ قادرين على صد الأذى لقلتهم واستضعافهم ، فلما استقر النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وأصبحت للمسلمين شوكة ومنعة ، واجهتهم قوة قريش وعداوتها ، وضعينة اليهود وخبثهم باحتمال العدوان عليهم في كل حين ، والإسلام دين وأقعي لا يغض عينه عن الواقع ويتبع الأوهام والمثل العليا إزاء قوم لا يؤمنون بهذه المثل ، ولا يحترمونها ، فكان لا بد له من أن يحتمي بالقوة ، ويستعد لرد العدوان ، ويقضي على قوة الباطل وشوكته ، لينفخ المجال أمام دعوته فللخير أعلما يهتدي بها ، ومنارات تضيء الطريق لمبتغي الهداية والخير والرشاد .

لهذا كله وما يشبهه شرع الله القتال للمؤمنين في السنة الثانية من الهجرة حين نزل الآيات التالية : (**أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**) [الحج : ٣٩ - ٤١] .

هذه هي أولى الآيات التي نزلت في شأن القتال والإذن فيه وجدير بنا أن نقف عندها قليلاً لنتعرف منها حكمه الإذن بالقتال وفائدته وأهدافه: ذكر في صدر الآية أنها أذن للمؤمنين بالقتال ، ويلاحظ أنه عبر عن المؤمنين بلفظ (الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ) ومن القواعد اللغوية المعروفة أن تعليق الحكم بمشتق يفيد عليه ما منه الاشتقاق ، فـ (يُقَاتِلُونَ) مشتق من المقاتلة ، أي : إن هؤلاء المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال فهذا صريح في أن العلة في الإذن لهم بالقتال وقوع الاضطهاد عليهم من قبل ، فهو بمثابة رد العدوان عنهم ، ومعاملة المثل بالمثل ، كما في قوله تعالى : (**فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ**) [البقرة : ١٩٤] وقوله : (**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا**) [الشورى : ٤٠] .

٢- وفي الآية نفسها تصريح بأن هذا القتال الذي كانوا يقاتلون به إنما كان ظلماً وعدواناً لأمسوخ له ، وذلك في قوله في الآية : (**بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا**) فالمؤمنون في مكة لم يكونوا ظالمين ولا متعسفين ، إنما كانوا يدافعون عن عقيدة ، ويدعون قومهم إلى التحرر من الأوهام والخرافات ، ومسائى الاخلاق .

٣- وفي الآية الثانية تصريح بالحقائق التاريخية التي وقع فيها الأضطهاد ، وذلك أن هؤلاء المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال كانوا قد أخرجوا من ديارهم ، وليس هنالك ظلم أشد من إخراج الإنسان من وطنه ، وتشريده عن أرضه .

٤- وفي الآية نفسها بيان للسبب الذي من أجله أخرج هؤلاء المؤمنون من ديارهم ، وهو أنهم خالفوا قومهم في اعتناق الوثنية وعبادة الآلهة الباطلة ، وعبدوا الله الواحد فالقوم كانوا مضطهدين من أجل العقيدة ، لا تريد قريش أن تكون لهم حريتهم فيها .

٥- وما دام المؤمنون كانوا لا يملكون حرية الاعتقاد ، فالقتال الذي شرع ، إنما هو لتأمين هذه الحرية التي هي أعلى ما يعتز به الإنسان من قيم في هذه الحياة .

٦- ثم بين الله أن هذا القتال الذي شرع للمؤمنين ليست فائدته في تأمين الحرية الدينية لهم وحدهم ، بل يستفيد منها أتباع الديانات السماوية الأخرى ، وهي اليهودية والنصرانية ، فإن المسلمين كانوا يؤمذ يقاتلون وثنيين لا دين لهم ، فإذا قويت شوكتهم استطاعوا أن يحموا أماكن العبادة لليهود والنصارى مع حمايتهم للمساجد، كي لا يستولي الوثنيون والملحدون فيحاربوا الديانات الإلهية ، ويغلقوا أماكن العبادة لها ، وذلك واضح في قوله تعالى في تلك الآية : (**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**) .

والصوامع: هي أماكن الخلوة للرهبان ، وتسمى الاديرة . والبيع : هي كنائس النصارى ، والصلوات : هي كنائس اليهود . وبذلك يتبين بوضوح أن القتال في الاسلام ليس لمحو الديانات السماوية وهدم معابدها ، بل لحماية هذه الديانات من استعلاء الملحدون والوثنيين عليها ، وتمكنهم من تدميرها وإغلافها .

٧- وفي الآية الثالثة تصريح بالنتائج التي تترتب على انتصار المؤمنين في هذا القتال المشروع ، فهي ليست استعمار الشعوب ، ولا أكل خيراتها ، ولا انتهاء ثرواتها ، ولا إذلال كراماتها ، وإنما هي نتائج في مصلحة الإنسانية وفوائد المجتمعات ، فهي :

أ- لنشر السمو الروحي في العالم عن طريق العبادة (أقامو الصلاة).

ب - ولنشر العدالة الاجتماعية بين الشعوب عن طريق الزكاة (وآتوا الزكاة) .

ج - ولتحقيق التعاون على خير المجتمع وكرامته ورقية (وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ)

د- وللتعاون على مكافحة الشر والجريمة والفساد (وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) .

تلك هي النتائج التي تترتب على انتصار المؤمنين في قتالهم مع أعدائهم ، من إقامة دولة إسلامية تعمل على سمو الروح ، و تكافل المجتمع ، ورفي الإنسان عن طريق الخير ، ومنع انحداره عن طريق الشر فأية غاية إنسانية أنبل من هذه الغاية التي شرع من أجلها القتال في الإسلام ، واي قتال عرفته الأمم في القديم والحديث يساوي هذه الغاية في عموم الفائدة للناس جميعا وبناء المجتمعات على ما يؤدي إلى رقيها وتطورها تطورا إنسانيا بناء ، لا رجوع فيه إلى عهد الجاهلية الأولى ، من الإباحية والأنحلال ، والاحاد ، الحروب ، وسفك الدماء كما هو شأن التطور الذي يتم في ظل هذه الحضارة الغربية المادية .

وإذا عرفنا أهداف الاسلام وغاياته من إباحة القتال ، عرفنا معنى أن في سبيل الله ، فالجهاد في سبيل الله هو جهاد لتحقيق الخير والسلام والسمو والعدل في المجتمعات ، وسبيل الله طريقه ، والطريق إلى الله لا يكون إلا عن طريق الخير والحب والتعاون على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان

وصايا الرسول في الغزوات_ الوصية الثالثة

١- كانت أولى المعارك بدرأ ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج لاعتراض قافلة قريش في عودتها من الشام إلى مكة ، ولكن القافلة نجت ، وكان المشركون قد صمموا على القتال ، فكان من أمر المعركة ما ذكرناه . واعتراض قافلة قريش لا يدل على الرغبة في أخذ الأموال وقطع الطريق ، كما يدعي الأفاكون من المستشرقين ، بل كان من بواعثه الاقتصاص من قريش لأخذ أموالها لقاء ما أخذت من أموال المؤمنين المهاجرين . فقد أجبرتهم أو أكثرهم على ترك دورهم وأراضيهم وأموالهم ، ومن علمت بهجرته بعد غيابه عن مكة باعت له دوره واستولت على أمواله ، فشريعة المعاملة بالمثل المتعارف بها اليوم من القوانين الدولية تبيح مثل هذا العمل ، كما هو الشأن بيننا وبين إسرائيل ومن المهم أن نلاحظ أنه سبقت غزوة بدر سبع محاولات لاعتراض عبر قريش ، وكان الذي يخرجون فيها من المهاجرين فحسب ، ولم يرسل فيها أنصاريا واحدا ، ذلك لأن هؤلاء المهاجرين إن اعتراضوا قافلة قريش ، واستولوا عليها ، فإنما يفعلون ذلك عن حق مشروع في جميع القوانين الإلهية ، والشرائع الوضعية ونشير إلى هذه المحاولات السبع ، وهي :

١- بعث حمزة على رأس سبعة أشهر من الهجرة و سرية عبيدة بن الحارث على رأس ثمانية أشهر منها ، و سرية سعد بن أبي وقاص على رأس تسعة أشهر منها ، و « غزوة ودان » على رأس اثني عشر شهرا منها ، و « غزوة بواط » على رأس ثلاثة عشر منها ، و « غزوة بدر الأولى » في الشهر الثالث عشر أيضاً ، و « غزوة العشيرة » على رأس ستة عشر من الهجرة ، كل هذه السرايا والغزوات كانت مؤلفة من المهاجرين فحسب ، ليس فيهم أنصاري واحد ، هذا يؤكد ما قلناه.

٢- إن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ، ووفرة السلاح ، وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش ، وقد كان الجيش الاسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية والإيمان المتقد ، والفرح بالاستشهاد ، والرغبة في ثواب الله وجنته ، كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال ، والفرقة ، والفساد ، بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة ، وتفسخ الاخلاق ، وتفكك الروابط الاجتماعية ، والانغماس في الملذات ، والعصبية العمياء للتقاليد البالية ، والآباء الماضين ، والآلهة المزيفة .

انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال ، فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر على أن يقيموا ثلاثة أيام يشربون فيها الخمر ، وتغني لهم القيان ، وتضرب لهم الدفوف ، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا فتهابهم ، وكانوا يظنون ذلك سبيلاً إلى النصر ، بينما كان المسلمون قبل بدء المعركة يتجهون إلى الله بقلوبهم ، يسألونه النصر ، ويرجون الشهاة ، ويشمون روائح الجنة ، ويخر الرسول ساجداً مبتهلاً يسأل الله أن ينصر عبادة المؤمنين ، وكانت النتيجة أن انتصر الاتقياء الخاشعون وانهزم اللاهون العابثون .

والذي يقارن بين أرقام المسلمين المحاربين ، وبين أرقام المشركين المحاربين في كل معركة ، يجد أن المشركين أكثر من المسلمين اضعافاً مضاعفة ، ومع ذلك فقد كان النصر للمسلمين ، حتى في معركتي أحد وحنين حيث انتصر فيها المسلمون ، ولولا ما وقع من أخطاء المسلمين في هاتين المعركتين ومخالفتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما لقي المسلمون هزيمة قط .

٣- إن شدة عزائم الجيش واندفاعه في خوض المعركة ، وفرحة بلقاء عدوه مما يزيد القائد إقداماً في تنفيذ خطته ، وثقته بالنجاح والنصر ، كما حدث في معركة بدر

٤- إن على القائد ألا يكره جيشه على القتال ، وخوض المعارك إذا كانوا غير راغبين ومتحمسين حتى يتأكد من رضاهم وتحمسهم ، كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم من استشارة أصحابه يوم بدر قبل خوض المعركة .

٥- إن احتياط الجنود لحياة قائدها أمر تحتمه الرغبة في نجاح المعركة الدعوة ، وعلى القائد أن يقبل ذلك ، لان في حياته حياة الدعوة ، وفي فواتها خسارة المعركة .

وقد رأينا في معركة بدر كيف رضي صلى الله عليه وسلم ببناء العريش له ، ورأينا في بقية المعارك : « أحد » و « حنين » و كيف كان المؤمنون الصادقون والمؤمنات الصادقات يلتفون جميعاً حول رسولهم ، ويحمونه من سهام الأعداء ، بتعريض أنفسهم لها ، ولم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه أنكر ذلك مع شجاعته وتأييد الله له ، بل أثنى على هؤلاء الملتفين حوله ، كما رأينا في ثنائه على نسيبة أم عمارة ، ودعائه لها بأن تكون هي زوجها وأولادها رفقاءه في الجنة.

٦- إن الله تبارك وتعالى يحيط عباده المؤمنين الصادقين في معاركهم بجيش من عنده ، كما أنزل الملائكة يوم بدر ن وأرسل الريح يوم الاحزاب . وما دام هؤلاء المؤمنون يحاربون في سبيله ، فكيف يتخلى عنهم وهو الذي قال : (**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**) [الروم : ٤٧] وقال : (**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**) [الحج : ٣٨] .

٧- إن من طبيعة الداعية الصادق أن يحرص على هداية أعدائه ، وأن يفسح لهم المجال لعل الله يلقي في قلوبهم الهداية ، ومن هنا نفهم سر ميل الرسول إلى فداء الأسرى يوم بدر ، فقد كان يرجو أن يهديهم الله ، وان تكون لهم ذرية من بعدهم تعبد الله وتدعو إليه ، وإذا كان القرآن الكريم قد عاتب الرسول على ذلك ، فلأن هناك مصلحة أخرى للإسلام يومئذ وهو إرهاب أعداء الله والقضاء على رؤوس الفتنة والضلالة ، ولو قتل الأسرى يوم بدر لضعفت مقاومة قريش للقضاء على زعمائها ومؤججي نار الفتنة ضد المؤمنين .

ويلوح لي سر آخر في قبول الرسول أمر الفداء ، وهو أن العباس عم الرسول كان من بين الأسرى ، وللعباس مواقف في نصرة الرسول قبل إعلان إسلامه ، فقد شهد معه بيعة العقبة الثانية سراً ، وكان يخبر الرسول عن كل تحركات قريش ، مما يؤكد عندي أنه كان مسلماً يكتف إسلامه ، فكيف يقتله الرسول وهذا شأنه معه ؟ ولو استثناه الرسول من بين الأسرى لخالف شريعته في تحريم قتل المسلم إن كان العباس مسلماً . وإن كان مشركاً . فشريعته لا تفرق بين قريب وبعيد في الوقوف موقف الحزم والعداء من كل من يحارب الله ورسوله ، ولا غتتمها المشركون والمنافقون فرصة للتشهير به ، وليس ذلك من مصلحة الدعوة في شيء .

٨- إن مخالفة أمر القائد الحازم البصير يؤدي إلى خسارة المعركة ، كما حصل في وقعة أحد، فلو أن رماة النبل الذين أقامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلف جيشه ثبتوا في مكانهم كما أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم لما استطاع المشركون أن يلتفوا من حولهم ويقلبوا هزيمتهم أول المعركة إلى نصر في آخرها . وكذلك يفعل العصيان في ضياع ونصر الأعداء ، وقد أذنب الله المؤمنين بالعذاب إن خالفوا أمر رسولهم ، فقال : (**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) [النور : ٦٣] .

٩- والطمع المادي في المغنم وغيرها يؤدي إلى الفشل فالهزيمة ، كما حصل في معركة أحد حين ترك الرماة مواقعهم طمعاً في إحرار الغنائم ، وكما حصل في معركة حنين حين أنتصر المسلمون في أولها . فطمع بعضهم في الغنائم ، وتركوا تتبع العدو ، مما أدى إلى عودة العدو وهجومه على المسلمين ، فانهزموا ، ولولا ثبات الرسول والمؤمنين الصادقين حوله ، لما تحولت الهزيمة بعد ذلك إلى نصر مبين ، وكذلك الدعوات يفسدها ويفسد أثرها في النفوس طمع الداعين إليها في مغنم الدنيا ، واستكثارهم من مالها وعقارها وأراضيها . إن ذلك يحمل الناس على الشك في صدق الداعية فيما يدعو إليه ، وإلى اتهامه بأنه لا يقصد من دعوته وجه الله عز وجل ، إنما يقصد جمع حطام الدنيا باسم الدين والإصلاح ، ومثل هذا الاعتقاد في أذهان الناس صد عن دين الله ، وإساءة إلى كل من يدعو إلى الإصلاح عن صدق وإخلاص .

١٠- وفي ثبات نسيبة أم عمارة ، ووقوفها وزوجها وأولادها حول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انكشف المسلمون يوم أحد . دليل من الأدلة المتعددة على إسهام المرأة المسلمة بقسط كبير من الكفاح في سبيل دعوة الإسلام ، وهو دليل على حاجتنا اليوم أن تحمل المرأة المسلمة عبء الدعوة إلى الله من جديد ، لتدعو إلى الله في أوساط الفتيات والزوجات والأمهات ، ولتنشئ في أطفالها حب الله ورسوله ، والاستمسك بالإسلام وتعليمه ، والعمل لخير المجتمع وصلاحة .

وما دام ميدان الدعوة شاغراً من الفتاة المسلمة الداعية ، أو غير ممثلي بالعدد الكافي منهن ، فستظل الدعوة مقصورة في خطاها ، وستظل حركة الإصلاح عرجاء حتى يسمع نصف الأمة وهن النساء ، دعوة الخير ، ويستقيظ في ضمائرهن وقلوبهن حب الخير والاقدام على الدين ، والاستمسك بعروته والوثقى . .

١١- وفي إصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجراح يوم أحد عزاء للدعاة فيما ينالهم في سبيل الله من أذى في أجسامهم ، وأضطهاد لحرياتهم بالسجن والاعتقال ، أو قضاء على حياتهم بالاعدام والاغتيال ، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم (**أَلَمْ . أَحْسَبِ النَّاسَ أَنْ يَتَّزَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**) [العنكبوت ٢،٣]

١٢- وفيما فعله المشركون يوم أحد من التمثيل بقتلى المسلمين ، وبخاصة حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، دليل واضح على خلو أعداء الاسلام من كل إنسانية وضمير فالتمثيل بالقتلى لا يؤلم القاتل نفسه ، إذ الشاة المذبوحة لا تتألم من السخ ، ولكنه دليل على الحقد الأسود الذي يملأ نفوسهم ، فيتجلى في تلك الأعمال الوحشية التي يتألم منها كل ذي وجدان حي ، وضمير إنساني .

كذلك رأينا المشركين يفعلون بقتلي المسلمين يوم أحد ، وكذلك رأينا اليهود يفعلون بقتلنا في معارك فلسطين ، وكلا الفريقين يصدران عن ورد واحد نابع من حنايا نفوسهم التي لا تؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك هو الحقد على المستقيمين في هذه الحياة من المؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً بالله ورسوله واليوم الآخر .

وفي قبول الرسول صلى الله عليه وسلم إشارة الحباب بن المنذر بالتحول من منزله الذي اختاره للمعركة يوم بدر ، وكذلك في قبول استشارته مثلاً واضحاً ، لهؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم من الفضل في عقولهم وبعد النظر في تفكيرهم ما يحملهم على احتقار إدارة الشعب ، والتعالي عن استشارة عقلائه وحكمائه ومفكره ، إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علم الله منه اكمل الصفات ما أهله لحمل أعباء آخر رسالاته واكمالها يقبل رأي أصحابه الخبيرين في الشؤون العسكرية ، وفي طبيعة الأراضي التي تتطلبها طبيعة المعركة دون أن يقول لهم: إني رسول الله ، وحسب أن أمر بكذا ، وأنهى عن كذا ، إذا قيل منهم ، وأراءهم فيما لم ينزل عليه وحى ، فكيف بالمتسلطين الذين رأينا كثيراً منهم لا ينفرد على الناس بعقل ولا علم ولا تجربته ، بل بتسلطه على وسائل الحكم بعد أن تواتيه الظروف في ذلك ؟ كيف بهؤلاء الذين هم أدنى ثقافة وعلماً وتجربته من كثير ممن يحكمونهم ، ألا يجب عليهم أن يستشيروا ذوي الأراء ، ويقبلوا بنصيحة الناصحين وحكمه المجربين .

إن حوادث التاريخ القريب والبعيد دللتنا على أن غرور الديكتاتوريين قضى عليهم وعلى أمتهم ، وهوى بالأمة منحدر سحيق يصعب الصعود منه إلا بعد عشرات السنين أو مئاتها ، ففيما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من قبول مشورة الحباب في بدر وخبير قدوة لكل حاكم مخلص ، ولكل قائد حكيم ، ولكل داعية صادق .

وإن من أبرز شعارات الحكم في الاسلام هو الشورى (**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**) [الشورى : ٣٦] وأبرز صفات الحاكم المسلم الخالد في التاريخ هو الذي يستشير ولا يستبد ، ويتداول الرأي مع ذوي الاختصاص في كل موضوع يهمه أمره (**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**) [آل عمران : ١٥٩] . (**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) [النحل : ٤٣ والأَنْبِيَاء : ٧] .

١٤- وفي تقدمه الصفوف في كل معركة وخوضه غمارها معهم إلا فيما يشير به أصحابه ، دليل على أن مكان القيادة لا يحتله إلا الشجاع المتثبت ، وأن الجبناء خائري القوى لا يصلحون لرئاسة الشعب ، ولا لقيادة الجيوش ، ولا لزعامة حركة الإصلاح ودعوات الخير ، فشجاعة القائد والداعية بفعله وعلمه يفيد في جنوده وأنصاره في إثارة حماسهم وان دفاعهم ما لا يفيد ألف خطاب حماسي يلقونه على الجاهير . ومن عادة الجنود والأنصار أن يستمدوا قوتهم من قوة قائدهم ورائدهم ، فذا جبن في مواقف اللقاء ، وضعف في مواطن الشدة ، أضر بالقضية التي يحمل لواءها ضراً بالغاً .

١٥- على الجنود وأنصار الدعوة ألا يخالفوا القائد الحازم البصير في أمر يعزم عليه، فمثل هذا القائد وهو يحمل المسؤولية الكبرى ، جدير بالثقة بعد أن يبادلوه الرأي ، ويطلعوه على ما يرون ، فإن عزم بعد ذلك على أمر ، كان عليهم أن يطيعوه ، كما حصل بالرسول يوم صلح الحديبية ، فقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم شروط الصلح ، وتبين أنها كانت في مصلحة الدعوة ، وأن الصلح كان نصراً سياسياً له ، وأن عدد المؤمنين بعد هذا الصلح ازداد في سنتين أضعاف من أسلم قبله ، هذا مع أن الصحابة شق عليهم بعض هذه الشروط ، حتى خرج بعضهم عن حدود الأدب اللائق به مع رسول الله وقائده وقد حصل مثل ذلك بأبي بكر يوم بدأت حوادث الردة ، فقد كان رأي الصحابة جميعاً ألا يخرجوا لقتال المرتدين ، وكان رأي أبي بكر الخروج ، ولما عزم أمره على ذلك أطاعوه فنشطا للقتال ، وتبين أن الذي عزم عليه أبو بكر من قتال المرتدين هو الذي ثبت الإسلام في جزيرة العرب ، وممكن المؤمنين أن ينساحوا في أقطار الأرض فاتحين هادين مرشدين .

١٦- ومما طلبه الرسول صلى الله عليه وسلم من نعيم بن مسعود ، أن يخذل بين الأحزاب ما استطاع في « غزوة الأحزاب » دليل على أن الخديعة في حرب الأعداء مشروعة إذا كانت تؤدي إلى النصر ، وأن كل طريق يؤدي إلى النصر وإلى الإقلال من سفك الدماء مقبول في نظر الإسلام ، ما عدا الغدر و الخيانة ، وهذا من حكمته السياسية والعسكرية صلى الله عليه وسلم ، وهو لا ينافي مبادئ الاخلاق الاسلامية ، فإن المصلحة في الاقلال من عدد ضحايا الحروب مصلحة إنسانية

والمصلحة في انهزام الشر والكفر والفتنة مصلحة إنسانية وأخلاقية ، فاللجوء إلى الخدعة في المعارك يلتقي مع الأخلاق الانسانية التي ترى في الحروب شراً كبيراً ، فإذا اقتضت الضرورة قيامها ، كان من الواجب إنهاؤها عن أي طريق كان ، لأن الضرورة تقدر بقدرها ، والله لم يشرع القتال إلا لحماية دين أو أمة أو أرض ، فالخدعة مع الأعداء بما يؤدي إلى هزيمتهم ، تعجيل بانتصار الحق الذي يحاربه أولئك المبطلون . ولذلك أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم في « غزوة الأحزاب » قوله لعروة ابن مسعود : « الحرب خدعة » وهذا مبدأ مسلم به في جميع الشرائع والقوانين .

وصايا الرسول في الغزوات_ الوصية الرابعة

١٧ - وفي قبوله صلى الله عليه وسلم إشارة بحفر الخندق ، وهو أمر لم تكن تعرفه العرب من قبل ، دليل على أن الاسلام لا يضيق ذرعا بالاستفادة مما عند الأمم الأخرى من تجارب تفيد الأمة وتنفع المجتمع فلا شك أن حفر الخندق أفاد كبرى في دفع خطر الأحزاب عن المدينة ، وقبول رسول الله هذه المشورة ، دليل على مرونته صلى الله عليه وسلم ، واستعداده لقبول ما يكون عند الأمم الأخرى من أمور حسنة ، وقد فعل الرسول مثل ذلك أكثر من مرة ، فلما أراد إنفاذ كتبه إلى الملوك والأمراء والرؤساء قيل له : أن من عادة الملوك ألا يقبلوا كتاباً إلا إذا كان مختوماً باسم مرسله ، فأمر على الفور بنقش خاتم له كتب عليه : محمد رسول الله ، وصار يختم به كتبه ، ولما جاءت الوفود من أنحاء العرب بعد فتح مكة تعلن إسلامها ، قيل له : يا رسول الله إن من عادة الملوك والرؤساء أن يستقبلوا الوفود بثياب جميلة فخمة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشتري له حلة ، قيل : إن ثمنها بلغ أربعمائة درهم ، وقيل : أربعمائة بعير ، وغدا يستقبل بها الوفود ، وهذا هو صنيع الرسول الذي أرسل بأخر الأديان وأبقاها إلى أبد الدهر ، فان مما تحتمه مصلحة أتباعه في كل زمان وفي كل بيئة أن يأخذوا بأحسن ما عند الأمم الأخرى ، مما يفيدهم ، ولا يتعارض مع أحكام شريعتهم وقواعدها العامة ، والامتناع عن ذلك جمود لا تقبله طبيعة الاسلام الذي يقول في دستوره الخالد : (فَبَشِّرْ عِبَادَ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) [الزمر : ١٧ ، ١٨] ولا طبيعة رسوله رأينا أمثلة عما أخذ من الامم الاخرى ، وهو القائل : « الحكمة ضالة المؤمن ينلمسها أي وجدها » ويوم غفل المسلمون في العصر الأخير ، وخاصة بعد عصر النهضة الأوروبية عن المبدأ العظيم في الاسلام ، وقاموا كل إصلاح مأخوذ عن غيرهم مما هم في أشد الحاجة . اليه ، أصيبوا بالانهيار ، وتأخروا من حيث تقدم غيرهم (وَ اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) [الحج : ٤١] .

١٨ - ومن صايا رسول الله صلى الله عليه وسلم للجيش الإسلامي في « غزوة مؤتة » طابع الرحمة الإنسانية في قتال الإسلام ، فهو لا يقتل من لا يقاتل ، ولا يخزي ما يجده في طريقه إلا لضرورة ماسة ، وقد التزم أصحابه من بعده والمسلمون في مختلف العصور ، بعد ذلك هذه الوصايا ، فكانت حروبهم أرحم حروب عرفها التاريخ ، وكانوا وهم محاربون أشد رحمة من غيرهم وهم مسالمون ، والتاريخ قد سجل للمسلمين صفحات بيضاء في هذا الشأن ، كما سجل لغيرهم صفحات سوداء ، ولا يزال يسجلها حتى اليوم ، ومن منا لا يعرف الوحشية التي فتح بها الصليبيون بيت المقدس ، والإنسانية الرحيمة التي عامل بها صلاح الدين الفرنجة حين استردها ، ومن منا لا يذكر وحشية الأمراء والجنود الصليبيين حين استولوا على بعض العواصم الإسلامية ، كطرابلس ، والمعرة وغيرها ، مع رحمة الأمراء والجنود المسلمين حين استردوا تلك البلاد من أيدي محتليها الغاصبين ، ونحن اليوم نعيش في عصر النفاق الأوروبي في أدعاء الحضارة والرحمة الإنسانية وحب الخير للشعوب ، وهم يخربون البلاد ، ويسفكون دماء العزل من الشيوخ والنساء والأطفال ، ولقد عشنا - بكل أسف - عصر قيام إسرائيل على أرض فلسطين السليبية ، وعلمت الدنيا فظائع اليهود الهمجية الوحشية في دير ياسين ، وقبية ، وحيفا ، ويافا ، وعكا ، وصفد وغيرها من المدن والقرى ، ومع ذلك فهم يدعون الإنسانية ، ويعملون عكسها ، ونحن نعمل للإنسانية ، ولا نتشدد بها ، ذلك أننا شعب نحمل في نفوسنا حقاً أجمل المبادئ الأخلاقية في السلم والحرب وننفذها براحة ضمير واطمئنان ، بينما هم مجردون من هذه المبادئ داخل نفوسهم ، فلا يجدون غير المناداة بها نفاقاً وتخديراً ، نحن شعب نؤمن بالله القوي الرحيم ، فلا تكون قوتنا إلا رحمة ، وهم شعب يرون من النفاق أن ينكروا علينا وصف الله بالقوة والبطش ، زاعمين أنهم ينعوتونه بالحب والرحمة ، فما كان لعلاقتهم من الشعوب وحروبهم مع المسلمين ومع أعدائهم من أبناء ملتهم أثر لهذا الحب ولهذه الرحمة ، نحن شعب ما كانت حروبنا إلا لخير الإنسانية ، فكنا أبر الناس بها ، وهم قوم ما كانت حروبهم إلا للغزو والسلب والتسلط والاستعمار ، فكانوا أعدى الناس لها .

ومع ذلك فنحن اليوم في حروبنا معهم إنما ندافع عن أرض وحق وكرامة ، فلن يجدينا التغني بمبادئنا مع قوم لا يفهمون مبادئ الرحمة والشرف والإنسانية ، بل يجب علينا أن نستمر في كفاحنا لهم ، متمسكين في معاركنا معهم بمبادئ رسولنا وشريعتنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهو أحكم الحاكمين .

١٩ - إن الجيش إذا كان غير متساوي في الحماس والإيمان والإخلاص ، بل كان فيه المتخاذلون والمرتزقة والمتهاونون ، لا يمكنه أن يضمن النصر على أعدائه ، كما حصل في « غزوة حنين » ، وكذلك شأن الدعوات لا يمكنها أن تعتمد على كثرة المصفيين لها ، بل على عدد المؤمنين بها المضحين في سبيلها .

٢٠ - ودرس آخر نستفيده من سيرة الرسول في حروبه ومعاركه ، هو موقفه من اليهود ، وموقف اليهود منه ومن دعوته ، فلقد حرص الرسول أول مقامه بالمدينة أن يقيم بينه وبينهم علاقة سلم ، وأن يؤمنهم على دينهم وأموالهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، ولكنهم قوم غدر ، فما لبثوا غير قليل حتى تأمروا على قتله ، مما كان سبباً في « غزوة بني النضير » ثم نقضوا عهده في أشد المواقف حرجاً « يوم الأحزاب » مما كان سبباً في « غزوة بني قريظة » ، ثم تجمعوا من كل جانب يهيئون السلاح ويبيتون الدسائس ، ويتجمعون ليقضوا في غدر وخسة على المدينة والمؤمنين فيها ، مما كان سبباً في « غزوة خيبر » .

هؤلاء قوم لا تنفع معهم الحسنى ، ولا يصدق لهم وعد ، ولا يستقيم لهم عهد فهل كان على النبي من حرج فيما فعله بهم ؟ وهل كان عليه أن يتحمل دسائسهم وخياناتهم ونقضهم للعهد فيعيش هو وأصحابه دائماً في جو من القلق والحذر وانتظار الفتنة والمؤامرات ؟ لقد ضمن النبي صلى الله عليه وسلم بحزمه معهم حدود دولته الجديدة ، وانتشار دعوته في الجزيرة العربية كلها ، ثم من بعد ذلك إلى أرجاء العالم ولا يلوم النبي على حزمه معهم إلا يهودي أو متعصب أو استعماري وها هي سيرة اليهود في التاريخ بعد ذلك ، ألم تكن كلها مؤامرات ودسائس وإفساداً وخيانة ؟ ثم ها هي سيرتهم في عصرنا الحديث هل هي غير ذلك ؟ ولقد كان فينا قبل حرب فلسطين وقيام اسرائيل فيها من يخدع بمعسول كلامهم فيدعو إلى التعاون معهم ، وكان فينا من يساق إلى دعوة التعاون معهم من قبل أصدقائهم من الدول الكبرى ، وكانت نتيجة ذلك التخاذل في معالجة قضية فلسطين ، أما بعد ذلك فلا يوجد من يغتر بهم ، وليس لنا سبيل التخلص من شرهم إلا حزم كحزم الرسول صلى الله عليه وسلم في معاملتهم لنطمئن على بلادنا ولننتفرغ لدورنا الجديد المقبل في حمل رسالة الاسلام والسلام إلى شعوب الأرض قاطبة . تلك أمانة نؤديها بصدق وإيمان إلى الجيل الجديد عساه يستطيع أن يفعل ما لم يستطيع فعله جيلنا المتخاذل .

٢١ - وفي غزوة مؤتة كان أول لقاء بين المسلمين والروم ، ولولا أن العرب الغساسنة قتلوا رسول الله إلى أمير بصرى ، لكان من الممكن أن لا يقع الصدام ، ولكن قتل رسوله إلى أمير بصرى يعتبر عملاً عدائياً في جميع الشرائع ، ويدل على عدم حسن الجوار ، وعلى تثبیت الشر من هؤلاء عمال الروم وصنائعهم ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إرسال جيش مؤتة ليكون فيه إنذار لهم ولسادتهم الروم بقوة الدولة الجديدة واستعدادها للدفاع عن نفسها حتى لا يفكروا بالعدوان عليها ، ولما وصل المسلمون إلى مؤتة وجدوا جموعاً من الروم ومن العرب الخاضعة لحكمهم قدرها المؤرخون بمائتي ألف ، وكان أخو هرقل قد قاد هذا الجيش وعسكر في « مآب » قرب عمان اليوم ، مما يؤكد ما توقعه الرسول منهم في التصميم إلى مناجزة الدولة الجديدة والقضاء عليها توجساً من قيام دولة عربية مستقلة داخل الجزيرة العربية تكون نذيراً بانتهاء استعمارهم لبلادهم واستعبادهم لعربها القاطنين على حدودها مما يلي الحجاز ، وهكذا بدأت المعارك بين المسلمين والروم .

٢٢- وفي غزوة تبوك أو العسرة آيات بينات على ما يفعله الإيمان الصادق في نفوس المؤمنين من إثارة عزائمهم للقتال واندفاع أيديهم في بذل المال ومن استعذبهم الحر والعناء والتعب الشديد في سبيل الله ومرضاته ، ولذلك لما تخلف ثلاثة من المؤمنين الصادقين في إيمانهم عن هذه الغزوة من غير عذر ، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمقاطعتهم ، فامتنع أزواجهم وأباؤهم عن مكالمتهم فضلاً عن جمهور المسلمين ، مما أضطر بعضهم إلى ربط نفسه بعمد المسجد ، وآخر إلى احتباس نفسه في البيت ، حتى تاب الله عليهم بعد أن أخذ المسلمون درساً بليغاً فيمن يتخلف عن أداء الواجب لغير عذر ، إلا أن يؤثر الراحة على التعب ، والظل الظليل على حر الشمس وشدتها .

٢٣- أما فتح مكة ، ففيها من الدروس والعظات ماتصيق عن شرحه هذه الصفحات القائلة ، ففيها نجد طبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم الداعية الذي لا يجد الحقد على مقاوميه ، فقد من عليهم بعد كفاح استمر بينه وبينهم إحدى وعشرين سنة لم يتركوا فيها طريقاً للقضاء عليه وعلى أتباعه وعلى دعوته إلا سلكوها ، فلما تم له النصر عليهم ، وفتح عاصمة وثبتهم ، لم يزد على أن استغفر لهم ، وأطلق لهم حريتهم ، وما يفعل مثل هذا ولا فعله في التاريخ أحد ، ولكن يفعله رسول كريم لم يرد بدعوته ملكاً ولا سيطرة ، وإنما أراد له الله أن يكون هادياً وقاتحاً للقلوب والعقول ، ولهذا دخل مكة خاشعاً شاكراً لله ، لا يزهو كما يفعل عظماء الفاتحين .

٢٤- وفيما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة حكمة أخرى ، فقد علم الله أن العرب سيكونون حملة رسالته إلى العالم . فأبقى على حياة أهل مكة وهم زعماء العرب ليدخلوا في دين الله ، ولينطلقوا بعد ذلك إلى حملة رسالة الهدى والنور إلى الشعوب ، ويبذلون من أرواحهم وراحتهم ونفوسهم ما أنقذ تلك الشعوب من عمائيتها ، وأخرجها من الظلمات إلى النور .

٢٥- وآخر ما نذكره من دروسها ودروس معاركة الحربية ، هي العبرة البالغة بما وصلت إليه دعوة الله من نصر في أمد لا يتصوره العقل ، وهذا من أكبر الأدلة على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن الإسلام دعوة الله التي تكفل بنصرها ونصر دعواتهم والمؤمنين بها والحاملين للوائها ، وما كان لله أن يتخلى عن دعوته وهي حق ورحمة ونور ، والله هو الحق وهو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، والله نور السموات والأرض ، فمن يستطيع أن يطفئ نور الله ! . وكيف يرضى للباطل أن ينتصر النصر الأخير على الحق ، وللهمجية والفساد أن تكون لها الغلبة النهائية على الرحمة والصلاح . ولقد أصاب رسول الله والمسلمين جراح في معركتي أحد وحنين ، ولا بد في الدعوة من ابتلاء وجراح وضحايا) **وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ([الحج : ٤٠])**

أهم الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة

إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

أ - غزوة حنين

بعد أن فتح الله مكة على رسوله والمسلمين فانهارت بذلك مقاومة قريش التي استمرت إحدى وعشرين سنة منذ بدء الرسالة ، تجمعت هوازن لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكانت معركة حنين التي تجد تفاصيلها في « سيرة ابن هشام » .

ونذكر من دروس هذه المعركة ما يلي:

١- ما كان من غزور مالك بن عوف وعدم استماعه لنصيحة دريد ابن الصمة حرصاً منه على الرئاسة ، واغتراراً منه بصواب فكره ، وتكبراً عن أن يقول قومه - وهو الشاب القوي المطاع - : قد أستمع إلى نصيحة شيخ كبير لم يبق فيه رمق من قوة ، ولو أنه أطاع نصيحة دريد لجنب قومه الخسارة الكبيرة في أموالهم ، والعار الشنيع في سبي نسائهم ، ولكنه الغرور وكبرياء الزعامة يوردان الشعوب موارد الهلكة ويجعلان عاقبة أمرها خسراً ، فقد أبى له غروره أن يستسلم لقوة الاسلام التي ذلت لها كبرياء قريش بعد طول كفاح وشديد بلاء ، وظن أنه بما معه من رجال وما عنده من أموال ، يستطيع أن يتغلب على قوة الاسلام الجديدة في روحها ، وفي أهدافها ، وفي تنظيمها عليه وعلى قومه ، ثم أبى له غروره إلا أن يخرج معه نساء قومه وأموالهم ليحول ذلك دون هزيمتهم ، وعدا نصيحة دريد الذي قال له : إن المنهزم لا يرد شيء ، فإنه غفل عن أن المسلمين الذين سيحاربهم لا يستندون في رجاء النصر على مال ولا عدو ولا عدة ، وإنما يستندون إلى قوة الله العزيز الجبار ، ووعده لهم بالنصر والجنة ، ولا يمتنعون عن الهزيمة رغبة في الاحتفاظ بنسائهم وأموالهم ، بل رغبة في ثواب الله وخوفاً من عقابه الذي توعد المنهزمين في ميادين الجهاد بأليم العذاب وشديد الانتقام (وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال : ١٦] .

وهكذا حلت الهزيمة بمالك وقبيلته هوازن ومن معه ، ولم يقتصر شؤم غروره وكبريائه عليه وحده ، بل أصاب قومه جميعاً ، لأنهم أطاعوه في هذا الغرور ، ولما أنذرهم بأنهم إن لم يستجيبوا له ، بقر بطنه بالسيف ، سارعوا إلى طاعته ، ولو أنهم ابتغوا نصيحة شيخهم المجرب ، وكفكفوا من كبرياء زعيمهم الشاب ، ولما أصابهم ما أصابهم ، لقد خافوا من غضب هذا الزعيم المغرور عليهم ، ولو أنهم سألوا أنفسهم : ماذا يكون لو أغضبناه ؟ لكان الجواب : انهم يفقدون زعيمهم ! وماذا في هذا ؟ ماذا في ذهاب زعيم مغرور أناني يريد أن يستأثر بشرف المعركة دون من هم أقدم وأخبر منه بالمعارك وشؤونها ؟ وهل توازي حياة شخص حياة قبيلة أو أمة من الناس بأكملها؟ لقد حذرنا الله في القرآن من نتيجة هذا الاستسلام الجماعي لأهواء المغرورين من الكبراء والزعماء ، يقول الله تعالى في قصة موسى مع فرعون (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ، فَلَمَّا آسَفُونَا) (أغضبونا باعراضهم عن الحق واتباعهم لطاغيتهم المغرور) (انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا) (قدوة للعقاب) (وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ) [الزخرف : ٥٤ - ٥٦] .

٢- ما كان من استعارة الرسول صلى الله عليه وسلم من صفوان وهو مشرك مائة درع مع ما يكفيها من السلاح من الكافر ، أو استعارته على أن لا يؤدي ذلك إلى قوة الكافر واستعلائه ، واتخاذها من ذلك وسيلة لأذى المسلمين وإيقاع الضرر بهم ، فقد استعار الرسول من صفوان السلاح بعد فتح مكة ، وكان صفوان من الضعف والهوان بحيث لا يقوى على فرض الشروط على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدل على ذلك قوله للرسول حين طلب منه ذلك : أغصباً يا محمد ؟ فأجابته الرسول : « بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك » .

وفي هذا أيضاً مثل من أمثلة الذبل في معاملة المسلمين لأعدائهم المنهزمين ، فلو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يأخذها منه غصباً لاستطاع ، ولما قدر صفوان أن يقوم شيئاً ، ولكنه هدي النبوة في النصر ومعاملة المغلوبين ، والعف عن أموالهم بعد أن تنتهي المعركة ويلقوا السلاح ، وما علمنا أن أحداً فعل هذا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولا بعده ، وفيما شهدناه من معاملة الجيوش المنتصرة للمغلوبين وسلب أموالهم وكراماتهم وحقوقهم أكبر تأييد لما قلنا (**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**) [الأحزاب : ٤] .

٣- حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال في هذه المعركة ، وكان معه أثناء عشر ألفاً : ممن خرجوا معه من المدينة فشهدوا فتح مكة ، وهم المهاجرون والأنصار ، والقبائل التي كانت تجاور المدينة ، أو في طريق المدينة ، ألفان ممن أسلموا بعد الفتح ، وكان أكثر هؤلاء ممن لم تتمكن هداية الاسلام في قلوبهم بعد ، وممن دخلوا في الإسلام بعد أن أنهارت كل آمالهم في مقاومته وإمكان التغلب عليه ، ففي هذا الجيش كان المؤمنون الصادقون الذين باعوا لله أرواحهم وأنفسهم في سبيل إعزاز دينه ، وفيه كان الضعاف في دينهم ، والمنافقون الذين أسلموا على مضض وهم ينطوون على الحقد وعدم الإيمان بالاهداف التي يحاربون من أجلها ، وفيه الراغبون في غنائم النصر ومكاسبه ، ولذلك كانت الهزيمة أول الأمر شيئاً غير مستغرب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى كثرة من معه : « لن نغلب اليوم من قلة » أي : إن مثل هذا الجيش في كثرة عدده لا يغلب إلا من أمور معنوية تتعلق بنفوس افراده ، تتعلق بإيمانهم وقوة أرواحهم واخلاصهم وتضحياتهم ، وقد وضع لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قاعدة جلييلة ، وهي أن النصر لا يكون بكثرة العدد ، ولا بجودة السلاح ، وإنما يكون بشيء معنوي يغمر نفسي المحاربين ، ويدفعهم إلى التضحية والفداء ، وقد أكد القرآن الكريم على هذا في غير موضع ، فقال تعالى : (**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**) [البقرة : ٢٤٩] .

وفي الآيات التي نزلت بعد انتهاء المعركة ما يشير بصراحة إلى هذا المعنى (**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)** [التوبة : ٢٥-٢٦] .

٤- وفي قول بعض المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم في طريقهم إلى المعركة : يا رسول الله لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، وفي جواب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم : « قلتم - والذي نفس محمد بيده - كما قال قوم موسى لموسى » (**اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**) [الاعراف : ١٣٨] إنها السنن ، لتركين سنن من كان قبلكم .

في هذا إشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما ستتسلكه هذه الأمة من تقليد الأمم السابقة لها ، وفيه تحذير من ذلك ، وأنها لا تتسلكه إلا من غلبة الجهالة عليها ، فالأمة التي تعرف وجوه الخير والفساد ، وطريق الضرر والنفع ، تأخذ الخير وتتسمك به ، وتعرض عن الفساد وتفر منه ، وتأبى أن تسلك أي طريق يضر بها ولو سلكته الأمم وسارت فهي ، فإذا سارت في طريق التقليد غير عابئة بنتائجه ، كانت قد وضعت الشيء في غير موضعه ، وهذا هو الجهل الذي قال عنه : (**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**) ، والأمة الواثقة بنفسها ، المعترزة بشخصيتها ، المطمئنة إلى ما عندها من حق وخير تأبى أن تسير وراء غيرها فيما يؤذيها وينافي مبادئها ، فإذا قلدت ، كانت ضعيفة الشخصية ، مضطربة التفكير ، مستسلمة للأهواء ، متردية في الضعف والانحلال ، وتلك هي الجاهلية التي أنقذنا الله منها برسوله وكتابه وشريعته ، ليس العلم والجهل في نظر دعوات الإصلاح هما القراءة والامية ، وإنما هما الهدى والضلال ، والوعي الغباوة ، فالأمة الواعية لما يفيدها وما يضرها ، هي الأمة العالمية ولو كانت أمية ، والأمة التي لا تهتدي إلى الخير سبيلا ، هي الأمة الجاهلة ولو كانت تعرف شتى العلوم ، وتحيط بمختلف الثقافات .

إن الذي هو ويهوي بالامم - أي أمة كانت - انما هو استيلاء الجاهلية على عواطف أبنائها وأهوائهم ، واسألوا التاريخ : هل انهارت حضارة اليونان والرومان الا بسيطرة الجاهلية عليها . إن المقلدين جهال مهما تعلموا ، أطفال مهما كبروا ، وسيظلون أولاداً جهالاً حتى يتحرروا .

٥- في هذه المعركة بعد أن انهزم المسلمون أول الامر ، وتفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ظن شيبه بن عثمان أنه سيدرك ثأره من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبوه قد قتل في معركة أحد ، قال شيبه : فلما اقتربت من رسول الله صلى الله عليه وسلم لاقتله أقبل شيء حتى تغشى فوادي ، فلم أطق ذلك ، وعلمت أنه ممنوع مني .

ولقد تكررت في السيرة مثل هذه الحادثة ، تكررت مع أبي جهل ، ومع غيره في مكة ، وفي المدينة ، وكلها تنفق على أن الله قد أحاط رسوله بجو من الرهبة أفزع الذين كانوا يتآمرون على قتله ، وهذا دليل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة ، وعلى أن الله قضى بحفظ نبيه من كل كيد ، وببقائه حياً ، حتى يبلغ الرسالة ، ويؤدي الأمانة ، وينقذ جزيرة العرب من جاهليتها ، ويقف بأبنائها في وجه الدنيا ، يعلمون ، ويهذبون ، وينقذون ، ولولا حماية الله لرسوله ، لقضى المشركون على حياته منذ أوائل الدعوة ، ولما كمل الدين ، وتمت النعمة ، ووصل إلينا نور الرسالة وهدايتها ورحمتها ، ولما تحول مجرى التاريخ تحوله الذي خلص الانسانية من عمائتها وشقائها بانتشار الاسلام ، وانتهاء عهود التحكم بالشعوب ، والاستبداد بتصريف شؤونها ، من ملوك ورؤساء أقاموا سلطانهم على البغي والظلم ، ومنع الشعوب من أن تشعر بكرامتها ، أو تتأثر لظلامتها ، ولقد تم كل هذا بفضل حماية الله لرسوله ، حتى أدى الأمانة كاملة غير منقوصة .

لا جرم أن فضل الله كان على رسوله عظيماً (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء : ١١٣] . وأن فضل رسول الله على البشر كان عظيماً ، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء : ١٠٧] . ولا جرم في أن نجاة دعاة الحق من كيد أعدائه ومن تربصهم بهم ، هو استمرار لذلك الفضل العظيم الذي ابتداء بحماية رسوله .

وأن على الدعاة أن يلجؤوا دائماً - بعد الاحتراس والحذر - إلى كنف الله ، ويحتموا بعزته وسلطانه ، ويتقوا بأن الله معهم نصير ، ولهم حافظ وأن من أراد الله له النجاة من كيد أعداء الهداية سينجو مهما يكن سلطانهم شديد الوطأة ، عظيم الكيد والتأمر والإجرام ، فالحماية حماية الله ، والنصر نصره ، والخذلان خذلانه ، والنافذ قضائه وأمره ، (إِنَّ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ) [آل عمران : ١٦٠] ومهما يعظم كيد الانسان الظالم ، فإن نصر الله العدل أعز وأعظم ، فلا يجبن داعية ولا يخف مصلح ، ولا يتأخر عن تأدية الحق مؤمن بالله واثق بعونه وتأييده (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [الروم : ٤٧] (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَيْكَ فِي الْأَدْلِينَ ، كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [المجادلة : ٢٠ - ٢١] ولا ينافي هذا نجاح أعداء الله في الوصول إلى بعض أئمة الهدى من دعاة الإصلاح ، وتمكنهم من القضاء عليهم ، أو إيقاع الأذى بهم ، فإن الموت حق ، وهو نصيب ابن آدم لامحالة ، فمن يكتب عليه الموت بأيدي الظالمين ، فانما هي كرامة أكرمه الله بها ، وفضل أنعم به عليه ، وكل موت في سبيل الله شهادة ، وكل أذى في دعوة الحق شريف ، وكل بلاء بسبب الإصلاح خلود (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [التوبة : ١٢٠] .

٦- فوجئ المسلمون أول المعركة بكمين أعدائهم لهم ، مما أدى إلى وقوع الخلل في صفوف المسلمين وأضطرابهم وتفرقهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يثبت معه إلا القليل ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينادي: إلى أيها الناس ! هلموا إلي ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبدالله ، فلم يسمع الناس صوته ، فطلب من العباس - وكان جهوري الصوت - أن ينادي في الناس ، : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السمرة ! فأجابوا : لبيك لبيك ، فيذهب الرجل ليثني بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ويقتم عن بعيره ويخلي سبيله ، ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم كان النصر

في هذا الموقف عدة من العبر والدروس يجدر بدعاة الحق وجنوده أن يقفوا عندنا طويلاً ، فإن انهزام الدعوة في معركة قد يكون ناشئاً من وهن في عقيدة بعض ابنائها وعدم أخلاصهم للحق ، وعدم استعدادهم للتفاني في سبيلة كما أن ثبات قائد الدعوة في الأزمات ، وجرأته ، وثقته بالله ونصره ، له أثر كبير في تحويل الهزيمة إلى نصر ، وفي تقوية قلوب الضعاف والمترددين ممن معه ، وللتابئين الصادقين من جنود الحق والتفاهم حول قائدهم الجريء المخلص أثر كبير أيضاً في تحويل الهزيمة إلى نصر ، إن الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة أول المعركة ، ثم الذين استجابوا لنداء الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتجاوزوا مائة ، وعندئذ ابتدأ التحول في سير المعركة ، وابتداء نصر الله لعبادة المؤمنين ، وابتداء نصر الله للمؤمنين ، وابتداء التحول في سير المعركة ، وابتداء نصر الله لعبادة المؤمنين ، وابتداء تحاذل أعدائه ، ووقوع الوهن في قلوبهم وصفوفهم ، وكلما تذكر قائد الدعوة وجنودها أنهم على حق ، وأن الله مع المؤمنين الصادقين ، ازدادت معنوياتهم قوة ، و ازداد إقدامهم على الفداء والتضحية .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا رسول الله » ، وفي رواية غير بن هشام أنه قال : « أنا النبي لا كذب » أنا ابن عبد المطلب « دلالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة وثقته بنصر ربه ، وهكذا ينبغي أن يكون القائد دائماً وأبداً في الشدائد ، واثقاً من نفسه ، وملتجئاً إلى ربه ، متأكداً من نصره له وعنايته به ، فإن لثقة القائد بهديه وغيابته ورسالته كبر الأثر في نجاته ولاتفاف الناس حوله ، ولها أكبر الأثر في تخفيف الشدائد على نفسه وتحمل آلامها راضياً مطمئناً .

٧- وفي موقف أم سليم بنت ملحان مفخرة من مفاخر المرأة المسلمة في صدر الإسلام ، فقد كانت في المعركة مع زوجها أبي طلحة وهي حازمة وسطها ببردلها وهي حامل ، ومعها جمل لابي طلحة قد خشيت أن يفلت منها ، فأدخلت يدها في خزامته (وهي حلقة من شعر تجعل في أنف البعير) مع الخطام ، فرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : أم سليم ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقاتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو يكفي الله يا أم سليم ! وكان معها خنجر ، فسألها زوجها أبو طلحة عن سر وجوده معها ! فقالت : خنجر أخذته ، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به ! فأعجب بها أبو طلحة ، ولفظت نظر الرسول إلى ما تقول .

هكذا كانت المرأة المسلمة، هكذا ينبغي أن تكون : جريئة تسهم في معارك الدفاع بحضورها بنفسها حتى إذا احتيج إليها أودنا منها الأعداء ، ردت عدوانه بنفسها كيلا تؤخذ أسيرة مغلوبة ، وللمرأة المسلمة في تاريخ الإسلام حين نشوئه صفحات مشرقة من الفداء والبلاء والتضحية والشجاعة ، مما يصفع أولئك المتعيبين من المشركين وغيرهم من الغربيين الذين زعموا لقومهم أن الإسلام يهين المرأة ويحتقرها ، ولا يجعل لها مكانها للائق في المجتمع في حدود رسالتها الطبيعية ، بل تمادى بهم الإفك إلى الادعاء بان الإسلام لا يفسح مجالاً للمرأة في الجنة ، فلا تدخلها مهما علمت من خير ، وقدمت من عبادة وتقوى !!

وبقطع النظر عن نصوص القرآن والسنة الصريحة في رد هذا الأفتراء ، فإن تاريخ الإسلام نفسه ، قد سجل للمرأة المسلمة ، من المآثر في نشره ، والدعوة إليه والتضحية في سبيله ما لم يسجله للمرأة دين من الأديان قط وما وقع من أم سليم في هذه المعركة (معركة حنين) مثال من مئات الأمثلة الناطقة بذلك ، ونحن لا يهمننا الرد على أعداء الإسلام المتعصبين في هذا الموضوع بقدر ما يهمننا أن نتخذ من حادثة أم سليم هنا درساً بليغاً يحفزنا دعوة المرأة المسلمة من جديد للقيام بدورها الطبيعي في خدمة الإسلام ، وتربية أجيالنا المقبلة على هدية ومبادئه ، إن المرأة المسلمة اليوم ، بين صالحة مستقيمة تكتفي من صلاحها بإقامة الصلوات ، وقرآنة القرآن ، والبعد عن المحرمات ، وبين منحرفة في تيار الحضارة الغربية ، قد استبدلت بأداب الإسلام آدابها ، وبأخلاق المرأة العربية المسلمة أخلاق المرأة الغربية التي جرت عليها وعلى اسرتها وشعبها البلاء والشقاء ،

وإذا كان بعض الناس قد أخذوا على عاتقهم تجريد المرأة العربية المسلمة من اخلاقها وخصائصها التي ربت بها أكرم أجيال التاريخ سمواً ونبلأً وخلوداً في المآثر المكرمات ، فإن الإسلام وتاريخه وبخاصة تاريخ رسوله صلى الله عليه وسلم ، يهيب بها اليوم أم تتقدم من جديد لتخدم الإسلام والمجتمع الإسلامي في حدود وظيفتها الطبيعية ، ورسالتها التربوية ، وخصائصها الكريمة ، من نبل وعفة ، وحشمة ، وحياء ، ترى هل تعيد فتياتنا المسلمات المتدينات تاريخ خديجة ، وعائشة ، وأسماء ، والخنساء وأم سليم ، وأمثالهن ؟ هل يعدن إلينا اليوم تاريخ هؤلاء المؤمنات الخالدات ، والنجوم الساطعات ؟ هل يصعب أن يوجد فيهن اليوم عشرات من خديجة ، وعائشة ، وأسماء ، وأم سليم ؟ كلا ، ولكن التوجيه الصحيح ، والإيمان الواعي المشرق ، كفيل بذلك وأكثر منه ، فمن التي تفتح سجل الخلود للمرأة العربية المسلمة في عصرنا الحاضر ، غير عابئة بتضليل المضللين ، واستهزاء المستهزئين من أعداء الخير والحق والفضيلة والدين؟

اهم الاحداث التي وقعت بعد فتح مكة إلى وفاة الرسول _ الجزء الثاني

٨- وفي هذه المعركة مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس متقصفون (مزدحمون) عليها، فقال : ما هذا ؟ قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه : أدرك خالدًا فقل له : إن رسول الله ينهك أن تقتل وليدًا ، أو امرأة ، أو عسيفاً (أجيراً) ...

لاشك في أن النهي عن قتل الضعفاء ، أو الذين لم يشتركوا في القتال ، كالرهبان ، والنساء ، والشيوخ ، والأطفال ، أو الذين أجبروا على القتال ، كالفلاحين ، والأجراء (العمال) شيء تفرد به الإسلام في تاريخ الحروب تبيح للأمة المحاربة قتل جميع فئات الشعب من أعدائها المحاربين بلا استثناء ، وفي هذا العصر الذين أعلنت فيه حقوق الإنسان ، وقامت أكبر هيئة دولية عالمية لمنع العدوان ، ومساندة الشعوب المستضعفة كما يقولون ، لم يبلغ الضمير الإنساني من السمو والنبيل حداً يعلن فيه تحريم قتل تلك الفئات من الناس ، وعهدنا بالحرابين العالميتين الأولى والثانية تدمير المدن فوق سكانها ، واستباحة تقتيل من فيها تقتيلاً جماعياً ، كما كان عهدنا بالحروب الاستعمارية ضد ثورات الشعوب التي تطلب بحقها في الحياة والكرامة .

إن المستعمرين يستباحون في سبيل إخماد تلك الثورات تخريب المدن والقرى وقتل سكانها بالآلاف وعشرت الآلاف ، كما فعلت فرنسا أكثر من مرة في الجزائر ، وكما فعلت إنجلترا في أكثر من مستعمرة من مستعمراتها ، وكما تفعل اليوم البرتغال في مستعمراتها في إفريقيا .

كما أننا لم نعهد قط في تاريخ شعب من شعوب العالم القديم والحديث النهي عن قتل العمال والفلاحين الذين يجبرون على الحرب جبراً ، ولكن الإسلام جاء قبل أربعة عشر قرناً بالنهي الصريح عن قتلهم ، ولم يقتصر الأمر على مجرد النهي تشريعاً ، بل كان ذلك حقيقة وواقعاً ، فهناك في معركة حنين ترى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو صاحب الشرعية ومبلغها عن الله إلى الناس ، يغضب لقتل امرأة ، ويرسل إلى بعض قواده أن لا يتعرض للنساء والأطفال والأجراء ، وحين جهز جيش أسامة لقتال الروم - قبل وفاته بأيام - كان مما أوصاهم به : الامتناع عن قتل النساء ، والأطفال ، والعجزة ، والرهبان الذين لا يقاتلون ، أو لا يعينون على قتال ، وكذلك فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين أنفذ بعث أسامة ، وحين كان يوجه الجيوش للقتال في سبيل الله : في سبيل الحق والخير والهدى والعدالة ،

وكذلك فعل سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه في كل مكان ، وفي مختلف العصور هذه المبادئ الإنسانية النبيلة التي لم يعرفها تاريخ جيش من جيوش الأرض ، وبذلك على حرص الجيش الإسلامي على هذه التقاليد معاملة صلاح الدين للصليبيين بعد أن انتصر عليهم ، واسترد منهم بيت المقدس ، فقد أعطى الأمان للشيوخ ، ورجال الدين ، والنساء ، والأطفال ، بل وللمحاربين الأشداء ، فوصلهم إلى جماعاتهم بحراسة الجيش الإسلامي ، لم يمسه سوء ، بينما كان والوحشية ، والدناءة ، فقد أمن الصليبيون سكان بيت المقدس المسلمين على أرواحهم وأموالهم ، إذا رفعوا الراية البيضاء فوق المسجد الأقصى ، فاحتشد فيه المسلمون مخدوعين بهذا العهد ، فلما دخل الصليبيون بيت المقدس ذبحوا كل من التجأ إلى المسجد الأقصى تذبذباً عاماً ، وقد بلغ من ذبحوا فيه سبعين ألفاً من العلماء والزهاد ، والنساء والأطفال ، حتى إن كاتباً صليبياً رفع البشارة بهذا الفتح المبين إلى البابا ، وقال فيه مباحياً : لقد سالت الدماء في الشوارع حتى كان فرسان الصليبيين يخوضون في الدماء إلى قوائم خيولهم .

إننا لا نقول اليوم هذا للمفاخرة والمباهاة بتاريخ فتوحاتنا وقوادنا وجيوشنا التي قال فيا « لوبون » : « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم ولا أعدل من العرب » وإنما نقول هذا لننبيه إلى أننا كنا أرحم بالإنسانية وأبر بها من هؤلاء الغربيين وهم في القرن العشرين ، وإلى أن هؤلاء الغربيين حين يتحدثون إلينا عن حقوق الإنسان ويوم الأطفال ، ويوم الأمهات ، تدليلاً منهم على سمو حضارتهم إنما يخدعوننا نحن ، بل يخدعون السذج والسخفاء ، وفاقدى الثقة بأممتهم وتاريخهم ممن يزعمون أنهم أبناؤنا ومتفقونا .

نريد أن يكون جيلنا المعاصر واعياً لهذه الدسائس ، واثقاً بدينه وتراثه الحضاري الانساني النبيل ، فلا يخضع لهؤلاء الغربيين خضوع الفقير الذليل أمام الغني القوي ، ولا يتهاقت على زادهم الفكري دون تمييز بين غثه وسمينه ، تهافت الفراش على النار ليحترق بها .

لقد أثبت العالم أن الإسلام خير الأديان ، وأقربها إلى فطرة الإنسان ، وأضمنها لصلاح الناس ، وأثبت التاريخ أن حروب الإسلام أرحم الحروب وأقلها بلاء ، وأكثرها خيراً ، وأنبأها هدفاً ، وفي كل يوم جديد برهان جديد على أن الإسلام دين الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن المسلمين الصادقين صفوة عباد الله وخيرتهم من الناس أجمعين. (**سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) [فصلت : ٥٣] .

٩- بعد أن تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من انهزم من هوازن على تقيف بالطائف ، وحاصرهما أياماً فلم تفتح عليه ، عاد إلى المدينة وفي الطريق قسم غنائم معركة حنين ، وكانت سنة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الأبل والشياه مالا يدري عدته ، وقد أعطى قسماً كبيراً منها للاشراف من العرب يتألفهم على الاسلام ، وأعطى كثيراً منها لقريش ولم يعط منها للأنصار شيئاً ، وتكلم بعضهم في ذلك متألمين من حرمانهم من هذه الغنائم ، حتى قال بعضهم : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ، أي إنه لم يعد يذكرنا بعد أن فتح الله مكة ودانت قريش بالاسلام ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار وخطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يا معشر الأنصار ! مقالة بلغني عنكم ، وجدة (أي عتب) وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ « بلى ! الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : « ألا تجيبونني يا معشر الأنصار » ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ الله ورسوله المن والفضل ، « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم : أتيناك مكذباً فصدقناك ، ومخدولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (البقية اليسيرة) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، وتركتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالمشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً (هو الطريق بين جبلين) وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم أرحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار « فبكي القوم حق أخضلوا (بللوا) لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

وها هنا مسائل يمكن التعليق عليها :

أولاً : قضية الغنائم كجزء من نظام الحرب في الإسلام ، وقد اتخذها أعداؤه وسيلة للطعن فيه على أنها باعثة مادي من بواعث إعلان الحرب في الإسلام ، ومنتشط فعال للجنود والمسلمين يدفعون إلى التضحية والفداء ، ولذلك يتهافتون عليها بعد الحرب ، كما في هذه المعركة ، ولا ريب في أن كل منصف يرفض هذا الادعاء ، فبواعث الحرب في الاسلام معنوية تهدف إلى نشر الحق ، ودفع الأذى والعدوان ، وهذا ما صرحت به آيات وأحاديث كثيرة صريحة ، ومن الغرابة بمكان أن يضحي الإنسان بحياته ، ويعرض مستقبل أسرته للضياع ، طمعاً في مغنم مادي مهما كبر ، والطمع في المغنم المادية لا يمكن أن يؤدي إلى البطولات الخارقة التي بدت من المحاربين المسلمين في صدر الإسلام ، ولا يمكن أن يؤدي إلى النتائج المذهلة التي انتهت إليها معارك الإسلام مع العرب في حياة الرسول ، والتي انتهت إليها معاركه مع فارس والروم فيما بعد ، على أن أعداء الإسلام لم تكن تنقصهم المطامع المادية ، فغنيمة أموال المسلمين ورقابهم في حال هزيمتهم كانت من نصيب أعدائهم حتماً ،

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين يقتسمون أموال أعدائهم ورقابهم عند الانتصار عليهم ، بل كان هذا شأن كل جيوش المتحاربين فلماذا لم تؤد المطابع المادية عند الأعداء إلى البطولات الخارقة ، والنتائج المذهلة التي كانت تبدو من الجنود المسلمين ، والتي أسفرت عنها الحروب الإسلامية ؟ وفي وقائع الحروب الإسلامية ما ينفي نفيًا قاطعاً بأن الدوافع المادية كانت هي الباعث الرئيسي في نفس الجندي المسلم ، ففي معارك بدر ، وأحد ، وموته ، وغيرها كان البطل المسلم يتقدم إلى المعركة مؤملاً في إحراز شرف الشهادة ونعيم الجنة ، حتى كان أحدهم يقذف بالتمر من فمه حين يسمع وعد الرسول للشهداء بالجنة ، ويخوض المعركة وهو يقول : بخ بخ ، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا هذه التمرات ، والله إنها لمسافة بعيدة ، ثم ما يزال يقاتل حتى يقتل ،

وكان أحدهم يبرز لقتال الأعداء وهو يقول الجنة ! والله إنني لأجد ريحها دون أحد (أي أقرب من جبل أحد ، وكان ذلك في معركة احد) . وفي معارك الفرس كان جواب قائد الوفد المسلم لرستم حين عرض أن يدفع للمسلمين أموالاً أو ثياباً ليعدلوا عن الحرب ويرجعوا إلى بلادهم ، والله ما هذا الذي خرجنا من أجله ، وإنما نريد إنقاذكم من عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار ، فإن انتم أسلمتم رجعنا عنكم ويبقى ملككم لكم ، وأرضكم لكم ، لا ننازعكم في شيء منها .. فهل هذا جواب جماعة خرجوا للمغانم والاستيلاء على الأراضي والأموال . أما أن يستشهد لتلك الدعوى الباطلة بما حصل عند تقسيم الغنائم بعد معركة حنين من استشراف نفوس كثيرين من المحاربين إليها ، وموجدة الانصار لحرمانهم منها ، فذلك المغانم من حديثي العهد بالإسلام الذين لم تتمكن هداية الإسلام من نفوسهم كما تمكنت من السابقين إليه ، ولذلك لم يستشرف لها أمثال أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن عوف ، وطلحة ، والزبير ، من كبار الصحابة السابقين إلى دعوة الإسلام ، وما حصل من الأنصار إنما كانت مقالة بعضهم ممن رأوا في تقسيم الغنائم يومئذ تفضيل بعض المحاربين على بعض في مكاسب النصر ، وهذا يقع من أكثر الناس في كل عصر ، وفي كل مكان ، وهذا المعنى مما يجده كل إنسان في نفسه في مثل تلك الظروف .

وليس أدل على إرادة رضي الله وثوابه وجنته ، وطاعة رسوله عند الأنصار ، من بكائهم حين خطب صلى الله عليه وسلم فيهم ، وكان مما قاله لهم : « ألا تريدون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم » ؟ فمن فضلو صحبة رسوله وقربهم منه وسكناه بينهم على الأموال والمكاسب ، أيصح أن يقال فيهم : إنهم إنما جاهدوا للأموال والمكاسب ؟

ولا معنى لأن يقال : لماذا جعل الإسلام الغنائم من نصيب المحاربين ، ولم يجعلها من نصيب الدولة كما في عصرنا هذا ؟ لأن القول بذلك غفلة عن طبيعة الناس ، وتقاليد الحروب في تلك العصور ، فلم يكن الجيش الإسلامي وحده دون الجيش الفارسي أو الرومي هو الذي يقتسم أفراداً أربعة أخماس الغنائم ، بل كان ذلك شأن الجيوش كلها ، ولو أن مجتهداً اليوم ذهب إلى أن غنائم الجيش الإسلامي في عصرنا الحاضر تعطي للدولة ، لما كان بعيداً عن فقه هذه المسألة وفق مبادئ الإسلام وروحه .

ثانياً - أن إغداق العطاء للذين أسلموا حديثاً ، يدل على حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفته بطبائع قومه ، وبعد نظره في تصريف الأمور ، فهؤلاء الذين ظلموا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويمتنعون عن قبول دعوته ، حتى فتح مكة ، والذين أظهر بعضهم الشماتة بهزيمة المسلمين أول المعركة ، لا بد من تأليف قلوبهم على الإسلام وإشعارهم بفضل دخولهم فيه من الناحية المادية التي كانوا يحاربونه من أجلها ، إذ كانوا - في الحقيقة - إنما يحاربونه وهم أشرف القوم إبقاء على زعامتهم ، وحفاظاً على مصالحهم المادية ، فلما خضد الإسلام من شوكتهم بفتح مكة ، كان من الممكن أن يظلموا في قرارة أنفسهم حاقدين على هذا النصر ، واجدين من هزيمتهم وانكسارهم ، والإسلام دين هداية وإصلاح ، فلا يكتفي بفرض سلطانه بالقهر والغلبة ، كما تفعل كثير من النظم التي تعتمد في قيامها وبقائها على القوة دون استجابة النفوس والقلوب ، بل لا بد من تفتح القلوب له ، واستبشارها بهدأيته ، وتعشيقها لمبادئه ومثله ، وما دام العطاء عند بعض الناس مفيداً في استصلاح قلوبهم وغسل عداوتهم ، فالحكمة كل الحكمة أن تعطي حتى ترضى ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد علم الله أن دعوته التي انتصرت أخيراً في جزيرة العرب ، لا بد من أن تمتد إلى شرق الدنيا وغربها ، فلا بد من إعداد العرب جميعهم لحمل هذه الرسالة ، والتضحية في سبيلها فإذا صلحت نفوس أشرافهم بهذه الاعطيات ، وتفتحت قلوبهم بعد ذلك لنور الدعوة ، وحمل أعباءها ، وهذا هو الذي حصل ، فانه بعد أن تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب هؤلاء الزعماء ، زالت من نفوسهم كل موجدة وحقد على الإسلام ودعوته ، فلما أنساح الجيش الإسلامي في الأرض للتبشير بمبادئ الإسلام ، إخراج الناس من ظلمتهم إلى نوره ، كانت الجزيرة العربية مستعدة لهذا العمل التاريخي العظيم ، وكان هؤلاء الرؤساء المؤلفة قلوبهم من أوائل الراضين المندفعين لخوض معركة التحرير ، وقد أثبت التاريخ بلاء كثير منهم في الفتوحات بلاءً حسناً ، كما كان لكثير منهم بعد ذلك فضل كبير في تثبيت دعائم الإسلام خارج الجزيرة ، وإرادة مملكته الواسعة ، وقيادة جيوشه المتدفقة .

ولا يضر هؤلاء المجاهدين أنهم كانوا في أول إسلامهم ممن ألفت قلوبهم على الإسلام ، أو تأخر دخولهم فيه عن فتح مكة ، فكثيراً ما يلحق المتأخر بالسابق ، ويدرك الضعيف فضل القوى ، ويخلص العمل من لم يبدأ مخلصاً ، وقد قال الحسن رحمه الله : طلبنا هذا العلم لغير الله ، فأبى إلا أن يكون لله . وقال غيره : طلبنا هذا العلم ولم تكن لنا فيه نية ، ثم حضرتنا النية بعد . وحسب المتأخرين أن الله وعدهم بالحسنى ، كما قال تعالى ؟ (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ ، وَقَاتِلُوا ، وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [الحديد : ١٠] .

ثالثاً - وفي جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم للأَنْصار واسترضائهم على حرمانهم من المغنم ، دليل على حسن سياسته صلى الله عليه وسلم ، ودمائه خلقه ، فهو حين بلغه ما قاله بعضهم بشأن الغنائم ، اهتم باسترضائهم وجمعهم لذلك ، وقال لهم ذلك القول الحكيم مع أنه يعلم أنهم يحبونه ويتبعونه ، وقد بذلوا في سبيل الله دماءهم وأموالهم ، فليس يخشى عليهم ما ينقص من إيمانهم ، ولكنه أحب أن يزيل ما علق في أذهان بعضهم حول هذا الموضوع ، وتلك سنة حميدة يجب أن يتبناها القادة والزعماء مع أنصارهم ومحبيهم ، فإن الأعداء متربصون لاستغلال كل حادثة أو قول يضعف تعلق المحبين بقادتهم ، والشيطان خبيث الدس ، سريع المكر ، فلا يهمل القادة استرضاء أنصارهم مهما وتقوا بهم .

ثم أنظر إلى ذلك الأسلوب الحكيم المؤثر الذي سلكه عليه الصلاة والسلام لاسترضائهم وإقناعهم بحكمه ما فعل ، فقد ذكر فضلهم على دعوة الإسلام ، ونصرتهم لرسوله ، ومبادرتهم إلى التصديق به حيث كذبه قومه وطاردوه ، بعد أن ذكرهم بفضل الله عليه في إنقاذهم من الضلالة والشتات والعداوة ليسهل عليهم كل ما فاتهم من مال الدنيا بجانب ما ربحوه من السعادة والهداية ، وبذلك أكد لهم أمرين : أنه لم ينحر إلى قومه وينسى هؤلاء ، أنه كان حين حرمانهم الغنائم ، إنما كان يعتمد على قوة دينهم ، وعظيم إيمانهم ، وحبهم لله ولرسوله ، و ليس بعد هذا الأسلوب أسلوب أبلغ في استرضاء ذوي الفضل والسبق في الدعوة ممن آمنوا بها مخلصين صادقين ، لا يرجون جزاءً ولا شكوراً . فصلى الله وسلم عليه ما أصدق قول الله فيه : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [ن : ٥] .

رابعاً - ان موقف الأنصار بعد أن سمعوا كلامه ، أروع الأمثلة في صدق الإيمان ، ورقة القلوب ، وتذكر فضل الله في الهداية والتقوى ، فقد ذكروا أن الفضل لله ولرسوله فيما قاموا به من النصر والتأييد والجهاد ، وأنهم لولا الله لما اهتدوا ، ولولا رسوله لما استضاءت قلوبهم وبصائرهم ، ولولا الإسلام لما جمع الله شملهم بعد الشتات ، وصان دماءهم بعد الهدر ، وأنقذهم من سيطرة اليهود إلى عز الإسلام وخلصهم من جيرانهم المستغلين ، ثم أعلنوا إيثارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل ما تفيض به الدنيا من مال ومتاع ، ولما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرحمة لهم ، ولأولادهم ولأولاد أولادهم . سألت مدامعهم فرحا بعناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ودعوته المستجابة لهم ، فهل بعد هذا دليل على صدق الإيمان ، وهل هناك حب اسمي وأروع من هذا الحب ؟ رضي الله عنهم وأرضاهم ، وخالد ذكراهم في العالمين ، وألحقنا بهم في جنات النعيم ، مع رسوله الحبيب العظيم ، والذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والمقربين .

وأخيراً فإن هذا الموقف وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار ، مما يجب أن يتذكره كل داعية ، وأن يحفظه كل طالب علم ، فانه مما يزيد في الإيمان ، ويهيج لواعج الحب والشوق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

أهم الاحداث التي وقعت بعد فتح مكة إلى وفاة الرسول _ الجزء الثالث

تابع لما بقي من اهم الاحداث التي وقعت بعد فتح مكة إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم رقم ٣

ب - تحطيم الأصنام

كان إبراهيم عليه السلام - وهو أبو الأنبياء بعد نوح - ممن حارب الوثنية في قومه ، حتى حاول قومه إحراقه بالنار ، كما يحكي القرآن الكريم ، ولما جاء إلى مكة أودع ولده إسماعيل عليه السلام فيها مع أمه ، فلما شب إسماعيل عليه السلام بنيا الكعبة معا لتكون بيتاً يعبد الله عنده ، ويحج الناس إليه ، وتكاثر ولد إسماعيل - وهم العرب المستعربة ، كما يسميهم المؤرخون ، واستمروا لا يعرفون عبادة الأوثان والأصنام ، ثم كان من عبادتهم أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن ، إلا أحتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم ، وصبا به بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها ، وحباً منهم للحرم ، وشوقاً إليه ، واستمروا كذلك حتى أدخل فيهم « عمرو بن الحي » عبادة الأوثان - وكان ذلك قبل البعثة النبوية بخمسمائة سنة على ما يقولون - فهو أول من غير دين إسماعيل عليه السلام ، وكان من أمره أنه تولى حجاب البيت بعد إجلاء جرهم عن مكة وما حولها ، ثم مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حمة - وهي التي يقال لها « الحمة » الآن - إن أتيتها برأت ، فاتاها فاستحم بها فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الاصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة ، وانتشرت بعد ذلك عبادة الأصنام في جزيرة العرب ، حتى كان لأهل كل دار في مكة صنم يعبدونه في دارهم ، فاذا أراد أحدهم السفر ، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره ، كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً .

ثم أولعت العرب بعبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت ، نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسنت ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذها ربا ، وإذا ارتحل تركه ، فاذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك .

وكان للعرب ثلاثة أصنام كبرى تعظمها ، وتحج إليها، وتنحر لها الذبائح :

أقدمها « مناة » وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين المدينة ومكة ، وكان العرب جميعاً تعظمه ، وأشدهم إعظاماً له الأوس والخزرج ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، أرسل إليه علياً ، فهدمه ، وأخذ ما كان له ، وأقبل به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان فيما أخذ : سيفان ، كان الحارث بن ابي شمر الغساني ملك غسان أهداهما له ، والحارث هو الذي قتل شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه حين سلمه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم غيره .

وثانيها « اللات » وكانت بالطائف ، وهي صخرة مربعة ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، فلما جاء وفد ثقيف بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم من فتح مكة إلى المدينة ، طلب وفدها منه عليه الصلاة والسلام أن يدع لها اللات ثلاث سنين لا يهدمها ، فأبى ذلك عليهم ، فلما زالوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم ، حتى سألوا شهراً واحداً ، فأبى عليهم .

قال ابن هشام : وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ، ونسائهم وذرائعهم ، ويكونون أن يروعا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الاسلام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدمها ، فلما أخذ المغيرة يضربها بالمعول ، خرج نساء ثقيف حسراً يبكين عليها ويقلن :

لنُبْكِينَ دُفَاعَ أسلمها الرُّضَاعَ

لم يُحْسِنُوا المِصَاعَ

يردن بذلك : واحسرتا عن التي كانت تدفع عنا أعداءنا ، وتدفع عنا البلاد ، قد أسلمها اللثام للهدم ، فلم يدافعوا عنها ، ولم يجالذوا بالسيوف في سبيلها .

وثالثها « العزى » كانت عن يمين المسافرين من مكة إلى العراق ، وكانت قريش تخصصها بالإعظام ، فلما نزل القرآن يندد بها وبغيرها من الأصنام ، أشد ذلك على قريش ، ولما مرض أبو أحيحة وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرضه الذي مات فيه ، دخل عليه أبو لهب يعوده ، فوجده يبكي ، فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه ؟ قال : لا ، ولكني أخاف ألا تعبد العزى بعدي ! قال أبولهب : والله ما عبدت في حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك ، فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لي خليفة ! .. وأعجبه شدة نصبه في عبادتها .

فلما كان عام الفتح دعا النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، وأمره أن ينطلق بهدمها ، فلما جاءه خالد ، قال سادنها دينية بن حرمي الشيباني :

أعزاء شدي شدة لا تكذبي على خالد إقي الخمار وشمري
فانك إلا تقتلي اليوم خالدا تبوئي بذل عاجل وتنصري

فقال خالد :

يا عَزَّ كُفْرانك لا غفرانك اني رأيت الله قد أهانك
وقد زعموا أنها كانت حبشية ، ناقشة شعرها ، واضعة يدها على عاتقها في داخل شجرة كان قد قطعها خالد ، فبرزت له بهذا الشكل ، فضربها ففلق رأسها ، فاذا هي حممة (أي كالفحم) والسام : « تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب ، أم إنها لن تعبد بعد اليوم . » تلك هي أشهر أصنام العرب في الجاهلية ، وهي التي ذكرها القرآن الكريم بقوله : (**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ**) [النجم ؟ ١٩- ٢٠] .

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت الحرام يوم فتح مكة ، رأى صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزرلام يستقسم بها ، فقال : «قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام ؟ » (**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) [آل عمران : ٦٨] ثم أمر بتلك الصور كلها ، فطمست .

قال ابن عباس : دخل رسول الله مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها ، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : (**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**) [الاسراء : ٨١] فما أشار إلى صنم منها في وجه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى كانت أصنام جزيرة العرب كلها قد سقطت عن عروشها ، وكفر بها عابداها ، وأصبح من كان يعبدها بالامس يخجل من قفاهه رأيه إذا كان يعبد حجراً لا يضر لا ينفع ولا يغني عن حوادث الدهر شيئاً .

لقد قامت رسالة الإسلام أول ما قامت على التشهير بهذه الأصنام الآلهة ، والتشجيع على عبادتها والدعوة إلى دين الفطرة : عبادة الله خالق الكون ورب العالمين ، وقامت جزيرة العرب وفي مقدمتها قريش هذه الدعوة ، ورأت فيها عجباً عجاباً (**أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ**) [ص : ٥] .

وماجت جزيرة العرب واضطربت لهذا الدين الجديد ، وحاولت وأده والقضاء على رسوله بكل وسيلة ، ولكن النصر كان أخيراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نضال استمر إحدى وعشرين سنة . فافتتح عاصمة الوثنية ، وحطم آلهتها ، وهزم جيوشها ، وتغلب على مؤامرات زعمائها ، هل يصدق العقل أن ذلك كله قد تم خلال هذه الفترة القصيرة ، (**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**) [الانفال : ١٧] .

لقد أنهى محمد بن عبدالله مأساة العرب الفكرية التي استمرت زهاء خمسمائة عام أو تزيد ، وحرر العقل العربي في أغلال الوثنية وخرافاتهما ، وأنقذ الكرامة العربية من مهانة الوثنية وحقارتها ، وفتح أبواب الخلود للعرب يدخلون منه ثم لا يخرجون ، ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « لا عزي بعدها للعرب ، إما إنها لن تعبد بعد اليوم » فقد ودعت جزيرة العرب حياة الوثنية إلى الأبد ، وبلغ العقل العربي سن الرشد ، فلم يعد يرضى بعودته إلى طفولته : طفولة الوثنية التي تحمل صاحبها على أن يضع جبهته عن أقدام حجارة صماء بكماء ، ولقد قامت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حروب وفتن ، وادعى النبوة من ادعاها ، وعارض القرآن من عارضة ، ولكننا لم نسمع أن عربياً واحداً فكر في العودة إلى الوثنية وآلهتها ، ذلك أن الراشد لن يعود طفلاً ، و كل ذلك إنما تم بفضل محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، فله على كل عربي إلى انتهاء الدنيا فضل الإنقاذ والتحرير ، ثم فضل زيادة الهدى لشعوب الأرض من اتبع الهدى ومن أعرض عنه ، **وَجَلَّ اللَّهُ حِينَ يَقُولُ (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)** . [الجمعة :] .

ج- غزوة تبوك

وأهم ما في هذه الغزوة من عبر ودروس

هو ما نوجز الكلام عنه

أولاً - كان سبب هذه الغزوة أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه سنة ، وأنضمت إليه من القبائل العربية لحم ، جذاع ، وغسان ، وعامل ، ثم قدموا طلائعهم إلى البلقاء - كور من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ندب الناس للخروج إلى تبوك ، ودعاهم إلى التأهب والاستعداد ، ودعا الاغنياء إلى البذل والإنفاق .

وهذا يفسر لنا طبيعة الحرب في الإسلام ، فهي ليست عدوانية ، لا استفزازية ، ولكنها للدفاع عن الدين والبلاد ، وردع المعتدين ، ومنهم عن الأذى والفساد ، وهذا ما سحرت به آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وقد تكلمنا عن أسباب مشروعية الحرب في الإسلام ، وأهدافه ، وطريقه ، في مذكرات السنة الأولى . وفي خروج رسول الله إلى تبوك بعد تأهب الروم وجمعهم للجموع تأييد لما قلناه هناك . وفي انضمام بعض القبائل العربية إلى الروم ضد المسلمين ، دليل على أن الإسلام ورسالته التحريرية للناس عامة وللعرب خاصة ، ولو كانوا يعلمون ذلك لأبوا أن يكونوا أعواناً للروم على أبناء قومهم من العرب المسلمين .

ثانياً - لقد كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للتأهب في وقت عسر وحر وموسم لجني الثمار، فأما المؤمنون الصادقون، فقد سارعوا إلى تلبيتهم للرسول غير عابئين بمشقة ولا حرمان، وأما المنافقون، فقد تخلفوا، واخذوا يعتذرون بشتى الأعذار، وهكذا يتبين المخلصون من المنافقين في أيام الشدائد، وينكشف أمر الأدعياء في أيام الشدائد، وفي أيام المحن، وقد قال الله تعالى: **« أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَالْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »** [العنكبوت : ٢-١] .

وإنما تقوم الدعوات، و تنتهض الأمم بتطهير صفوفها من المنافقين والمخادعين ولا يثبت للشدة إلا كل صادقة العزيمة، مخلص النية، ثابت المبدأ، كثيراً ما عوق الضعاف والمخادعون سير دعوات الإصلاح في الأمة، وحالوا بينها وبين النصر، أو أخرجوها ولو إلى حين، ولقد تلخص جيش العسرة في غزوة تبوك من أمثال هؤلاء بفضل افتضاح أمرهم، وانكشاف ضعف إيمانهم، وخور عزائمهم، وإن جيشاً متراض الصف، متحد الكلمة، صادق العهد، أجدى للأمة - ولو كان قليل العدد - وأدعى الاكتساب النصر من جيش كثير العدد، متفاوت الفكرة والقوة والثبات **« كم مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »** [البقرة: ٢٤٩] .

ثالثاً - أن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم، دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها، مما تحتاج إليه كل أمة، وكل دعوة، لضمان النصر على أعدائها، وتأمين الموارد اللازمة لها وهذا ما نجد أمتنا اليوم أشد الحاجة إليه، فالأعداء كثر، والأعباء ثقيلة، والمعركة رهيبية، والعدو قوي ماهر، فلا نستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التضحيات في الأموال والأنفس والأهواء والشهوات ولا يحق ذلك إلا الدين الصحيح المفهوم على حقيقته الذي يربي النفوس على احتساب الأنفاق والتعب في سبيل الأمة جهاداً يثيب الله عليه كما يثب المجاهدين في ميادين النضال .

وخير ما يفعله المصالحون وزعماء النهضات، هو غرس الدين في نفوس الناس غرساً كريماً، ولكن مقاومة للدين، أو دعوة إلى التحرر منه، أو تظاهر بالاستخفاف من شأنه جريمة وطنية تؤدي إلى أسوأ النتائج، وخطر الآثار، كذلك علمنا الله، وكذلك أثبت لنا التاريخ في الماضي، وأثبتت التجربة في الحاضر، وكل إنكار لهذه الحقيقة مغالطة لا يلجأ إليها إلا الذين لم يتلخص للحق نفوسهم، ولم تتفتح للخير أفئدتهم، ولم تتحلى بالسمو والنبيل طباعهم .

رابعاً - وفي قصة الذين جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون أن يأخذهم معه إلى الجهاد، فردهم لأنه صلى الله عليه وسلم ما يجد ما يحملهم عليه . فولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً على حرمانهم من شرف الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في هذه القصة التي حكاها الله في كتابه أروع الأمثلة على صنع الإيمان للمعجزات، فطبيعة الإنسان أن يفرح لنجاته من الأخطار، وابتعاده عن الحروب، ولكن هؤلاء المؤمنين الصادقين بكوا من أجل ذلك، إذا اعتبروا أنفسهم قد فاتهم حظ كبير ..وأي خسارة تلحق بالأمة حين تخلو من أمثال هؤلاء ؟

خامساً - وفي قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد إثارة للراحة على التعب ، والظل على الحر ، والإقامة على السفر ، من أنهم مؤمنون صادقون ، درس اجتماعي من أعظم الدروس ، فقد استيقظ الإيمان في نفوسهم بعد قليل ، فعلموا أنهم ارتكبوا بتخلفهم عن رسول الله والمؤمنين إثماً كبيراً ، ومع هذا فلم يفهم ذلك من العقوبة ، وكانت عقوبتهم قاسية رادعة ، فقد عزلوا عن المجتمع عزلاً تاماً ، ونهي الناس -حتى زوجاتهم- عن كلامهم والتحدث إليهم ، ولما علم الله منهم صدق التوبة ، وبلغ منهم الندم والألم والحسرة مداه ، تاب الله عليهم ، فلما بشروا بذلك كانت فرحتهم لا تقدر ، حتى أنسلخ بعضهم عن ماله وثيابه شكراً لله على نعمة الرضى والغفران

إن مثل هذا الدروس تمنع المؤمن الصادق في إيمانه عن أن يتخلف عن عمل يقتضيه الواجب أو يرضى لنفسه بالراحة والناس يتعبون ، و يبتسون ، وتلك هي طبيعة الإيمان : أن تشعر دائماً وأبداً أنك فرد من جماعة ، و جزء من كل ، وأن ما يصيب الجماعة يصيبك ، وما يفيدها يفيدك ، وأن النعيم لا معنى له من شقاء الأمة و بؤسها ، والراحة لا لذة لها مع تعب الناس وعنائهم ، وأن التخلف عن الواجب نقص في الإيمان ، وخلل في الدين ، وإثم لا بد فيه من التوبة والانابة . كما تعطينا القصة درساً بأن العقيدة فوق القرابة، وأن تنفيذ النظام المشروع مقدم على طاعة الهوى والعاطفة، وأن القرابة لا تغني شيئاً إزاء غضب الله ومقته (**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) [النور : ٦٣] .

د - حجة الوداع

كانت حجة الوداع هي الحجة الوحيدة التي أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السنة ، توافد الناس إلى الحج من مختلف أنحاء الجزيرة العربية حتى بلغوا - كما قال بعض المؤرخين - مائة وأربعة عشر ألفاً ، ونحسب أن هذا العدد تقديري ، وإلا فكيف أمكن إحصاؤهم وتحديد عددهم بهذا القدر ؟

وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة التي يجب أن يحفظها كل طالب علم ، لما تضمنته من إعلان المبادئ العامة للإسلام ، وهي آخر خطبه صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء فيها : « أيها الناس ، اسمعوا قلبي ، لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً » - وهذا من معجزات رسوله صلى الله عليه وسلم - أيها الناس ، إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وحرمة شهركم هذا ، و إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يبس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيها سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروا على دينكم .

أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفورا يفلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبنية ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به ، فلن تضلوا أبداً ، أما بيئاً ، كتاب الله وسنة نبيه ، أيها الناس أسمعوا قولي وأعقلوه ، تعلموا أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلموا أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ » .

إن أول ما يلفت النظر في حجة الوداع هذا الجمهور الضخم الذين حضروا مع الرسول صلى الله عليه وسلم من مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، مؤمنين به ، مصدقين برسالته ، مطيعين لأمره ، وقد كانوا جميعاً قبل ثلاثة وعشرين سنة فحسب على الوثنية والشرك ، ينكرون مبادئ رسالته ، ويعجبون من دعوته إلى التوحيد ، وينفرون من تنديده بأبائهم الوثنيين ، وتسفيهه لآحلامهم ، بل كان كثير منهم قد ناصبوه العدا ، وتربصوا به الشر ، وبيتوا على قتله ، وألبوا عليه الجموع ، وجالدوه بالسيوف والرمح ، كيف تم هذا الانقلاب العجيب في مثل هذه المدة القصيرة ، وكيف استطاع صلى الله عليه وسلم أن يحول هذه الجموع من وثنياتها وجاهليتها وترديها وتفرقها إلى توحيد الله ووحدة الهدف والغاية ؟ وكيف كسب حب هذه القلوب بعد عداوتها ، وهي المعروفة بشدة الشكيمة وعنف الخصام ؟ ألا إن إنساناً مهما بلغت عبقريته ودهاؤه ، وقوة شخصيته ليستحيل أن يصل إلى هذا في مئات السنين ، وما سمعنا بهذا في الأولين والآخرين ، إن هو إلا صدق الرسالة ، وتأييد السماء ، ونصرة الله ، ومعجزة الدين الشامل الكامل الذي أتم الله به نعمته على عباده ، وختم به رسالاته للناس ، وأراد أن ينهي به شقاء أمة كانت تائهة في دروب الحياة ، مستذلة للأهواء والعصبيات ، وأن يدلها على طريق الهداية ، ويفتح أعينها لأشعة الشمس ، ويقلدها قيادة الأمم ، ويحول بها مجرى التاريخ ، ويحمي بها مهانة الإنسان ، ويورثها الحكمة والكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب .

مائة وأربعة عشر ألفاً كانوا له مكذبين ، أصبحوا له مصدقين ، وكانوا محاريبين ، فأصبحوا له مذعنين ، وكانوا له مبغضين ، فأصبحوا له محبين ، وكان عليه متمردين ، فأصبحوا له طائعين ، كل ذلك في ثلاث وعشرين من السنين .. ذلك هو صنع الله الحق المبين ، فتعالى الله عما يشركون ، وتنزهت ذات رسوله عما يقول الملحدون ، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وثاني ما يلفت النظر في حجة الوداع هذا الخطاب القوي المحكم الذي خاطب به رسول صلى الله عليه وسلم الناس أجمعين ، وتلك المبادئ التي أعلنها بعد إتمام رسالته ونجاح قيادته ، مؤكدة للمبادئ التي أعلنها في أول دعوته ، يوم كان وحيداً مضطهداً ، ويوم كان قليلاً مستضعفاً ، مبادئ ثابتة لم تتغير في القلة والكثيرة ، والحرب والسلم ، والهزيمة والنصر ، وإعراض الدنيا وإقبالها ، وقوة الأعداء وضعفهم ، بينما عرفنا في زعماء الدنيا تقلباً في العقيدة والمبدأ ، وتبايناً في الضعف والقوة ، وتغيراً في الوسائل والأهداف ، يظهرون خلاف ما يبتنون ، وينادون بغير ما يعتقدون ، ويلبسون في الضعف لبس الرهبان ، وفي القوة جلود الذئاب ، وما ذلك إلا لأن هؤلاء رسل المصلحة ، وأولئك رسل الله وشتان بين من يحوم فوق الجيف ، وبين من يسبح في بحار النور ، شتان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن (الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة : ٢٥٧]

هـ - بعث أسامة

إن آخر ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر الدعوة وحمائيتها ، ورد غارة المعتدين على الدولة الجديدة والمتربصين بها أن جهز جيشاً إلى الشام تحت قيادة أسامة بن زيد وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وقد كان في هذا الجيش جميع المهاجرين والأنصار ، ومن كان حول المدينة من المسلمين ، لم يتخلف منهم أحد ، لما كان الجيش في ظاهر المدينة يتأهب للمسير ابتداء مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه ، فتوقف الجيش عن السير انتظاراً لشفاء الرسول ، ورغبة في تلقي تعاليمه وهدية ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي بعد أيام ، واختاره الله إلى جواره بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، وهياً جزيرة العرب كلها لحمل لواء الاسلام ، ونشر حضارته وتعاليمه في أنحاء الأرض ، وبعد أن تكون الجيش الذي يقوم بحمل أعباء هذه الأمانة العظيمة الأثر في التاريخ ، بعد أن تهيأ جنوده الصالحون لخوض معاركها ، والقادة الأكفاء لقيادة حروبها ، والرجال العظماء الصالحون لإدارة دولتها ، فصلى الله وسلم على رسوله ، وجزاه الله عنا وعن الإنسانية خير الجزاء ، فلولا ولولا جنوده الأوفياء الذين أدوا الأمانة من بعده لكان الآن في ضلال مبين .

لقد أكرم الله رسوله بما لم يكرم نبياً من قبله ، إذا طالت حياته حتى رأى ثمرة دعوته وكفاحه تلف الجزيرة كلها، فتطهرها من الأوثان تطهيراً أبدياً ، وتجعل الذين حطموا هذه الأصنام بأيديهم فرحين بنعمة الله في أنقاذهم من الضلال ، هم الذين عبدوها من قبل ، وعفروا لها وجوههم بالسجود لها ، وطلب الزلفى عندها ، ثم تجعل هؤلاء مستعدين تمام الاستعداد للانسياح في الأرض ، يحملون إلى الناس نور الهداية التي أنعم الله عليهم بها ، إنه جيل واحد في الذين كان يعبد الأصنام ويؤلهاها ويعش في جاهليته هملاً مبعثراً لكفاءات المواهب ، ثم هو الذي حطم الأوثان ، وأقام الدولة العربية الأولى في تاريخ العرب كله ، التي تحمل رسالة وتحدد هدفاً ، وتقف من أقوى أمم الأرض حولها موقف المعلم المنقذ ، والرائد المعتز بما يحمل من هدى ونور وخير المشفق على ما كانت تتردى فيه الأمم من جهالة وظلام وانحلال ، بينما كان العرب ينظرون إليها قبل الاسلام نظر الإكبار والإعظام ، ويقفون منها موقف التبعية السياسية والفكرية الاجتماعية ، إنه حدث فريد في التاريخ قديمة وحديثه ، وليس بعث أسامه إلا عنوان هذا الحدث ونتائج هذه الرسالة الميمونة المباركة . ثم يتجلى من جعل رسول الله الحدث ونتائج هذه الرسالة الميمونة المباركة .

قيادة الجيش لأسامة بن زيد و هو شاب في سن العشرين وتحت لوائه شيوخ المهاجرين والأنصار ، كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وهم من هم في سبقهم إلى الإسلام ، وحسن بلائهم فيه ، وتقدمهم في السن والمكانة على أسامة ، إن في هذا سنة حميدة من سنن الإسلام في إلغاء الفوارق بين الناس من حيث السن والفضل وتقديم الكفاء الصالح لها مهما يكن سنة ومكانته ، ثم في رضي هؤلاء العظماء الذين أثبت التاريخ انه لم ينجب مثلهم في عظمتهم وكفاءاتهم ، على أن يكونوا تحت إمرة أسامة الشاب ، ما يدل على مدى التهذيب النفسي والخلقي الذي وصلوا اليه بفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدايته وتربيته وإرشاده .

إن في تأمير أسامة على عمر وعثمان وعلي ، سابقة عظيمة لم تعهدها أمة من الأمم ، تدل على وجوب فسح المجال لكفاءات الشباب وعبقرياتهم ، وتمكينهم في قيادة الأمور حين يكونون صالحين لذلك ، وهذا درس عظيم لو بقي المسلمون يذكرونه من بعد لاخفتت من تاريخ الإسلام محن وكوراث ، ومن تاريخ دولته عواصف وفتن زعزعت أركانها وأضعفت من قوتها ، فنعم ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤيد بوحى السماء الموهوب من الحكمة السداد ، و بعد النظر ، وعظيم السياسة ، مالم يوهب نبي قبله ، ولم يعرف عن عظيم في التاريخ من قبله ومن بعده ، ورضي الله عن أسامة الشاب ، وهنيئاً له ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بكفاءة قيادته وصدق عزيمته ، وحسن إسلامه ، رضي الله عنه وجعله قدوة لشبابنا المؤمنين العاملين

و - وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن علم من طريق الوحي بقرب أجله ، فودع الناس في حجة الوداع ، وكانت قلوب الصحابة واجفة وعلقة خشية أن يكون أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اقترب ، ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر فلما أشيع عن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اضطرب الصحابة جميعاً لهول الكارثة ، وزلزلت المدينة زلزالها ، وطاشت عقول كثيرة من كبار الصحابة والسابقين إلى الاسلام ، فمنهم من عقل لسانه ، ومنهم من أقعد عن الحركة ، ومنهم وهو عمر من شهر سيفه ينهى الناس أن يقولوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ، ويزعم أنه غاب ، وسيرجع اليهم ، ولكن أبا بكر وحده هو الذي كان ثابت الجأش ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مسجى على فراشه ، فقبله وقال له : بأبي أنت وأمي يارسول الله ! ما أطيبك حياً وميتاً ! أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موته أبداً ، يا رسول الله أذكرنا عند ربك .

ثم خرج أبو بكر إلى الناس ، فخطب فيهم وقال : أيها الناس ! من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ([آل عمران : ١٤٤] . فلما تلاها أبو بكر أفاقوا من هول الصدمة ، وكانهم لم يسمعوها من قبل ، قال أبو هريرة : قال عمر : فوالله ما هو إلا أن سمعت أن أبا بكر تلاها فعقرت - أي دهشت وتحيرت - حتى وقعت إلى الأرض وما تحملتني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات .

وهنا درسان بالغان :

أولهما : أن الصحابة دهشوا لموت رسول الله عليه وسلم ، حتى لكأن الموت لا يمكن أن يأتيه ، مع أن الموت نهاية كل حي ، وما كان ذلك إلا لحبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حباً أمتزج بدمائهم وأعصابهم ، والصدمة بفقد الأحباب تكون على قدر الحب ، ونحن نرى من يفقد ولداً أو أبا كيف يظل أياماً لا يصدق أنه فقده ، وأي حب في الدنيا يبلغ حب هؤلاء الصحابة الأبرار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد هداهم الله به ، وانقذهم من الظلمات إلى النور ، وغير حياتهم ، وفتح عقولهم وأبصارهم ، وسما بهم إلى مراتب القادة العظماء ، ثم هو في حياته مرببهم وقاضيهم ومرشدهم يلجؤون إليه في النكبات ، ويستترشدونه في الحوادث ، ويأخذون منه خطاب الله لهم وتعليمه لهم ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أنقطع ذلك كله ، في صدمة أبلغ من هذه الصدمة وأشدّها أثراً .

ثانيهما : أن موقف أبي بكر دل على أنه يتمتع برباطه جأش وقوة أعصاب عند النكبات لا يتمتع بها صحابي آخر . وهذا ما يجعله أولى الناس بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أثبت ذلك في حروب الردة في جزيرة العرب .



تنسيق واخراج
موقع نصره رسول الله
www.rasoulallah.net